كامل العبد الله

حدثني أبي



بيت الحكمة
بيروت

هـذهِ المواقِف

حديث ابنتي إليّ ، وحديثي إلي ابنتي ، هو كلمة الحياة تُهمس في أروع تلاقٍ ، وفي أقدس بَوح .

لم يسعَ القلم إليها ، وإنمـا هي التي سعت ، ولا جهدت الخواطر في نظم خواطرها واستلهام عوالمها ، وإنما هي التي فرضت وجودها .

برزت بين يديّ براعم . وفي اللّفح المحرور ، ومع دُوار الأيّام تفتّحت ، وعبيرَها نفحت ، فإذا السعادة انتشاء ، تخفّ معه الجوانح ، وتغنّى به الذات ، وتتوالد لديه بواكير الأمانيّ .

أُولئك الصغار الذين ساقتهم سُنّة هذا الوجود إلى عالمنا ، نظنُّ أنّهم بنا يعيشون ، وعلى دمائنا ينمون ويتكاملون ؛ والحقيقة أنّنا بهم نعيش ، وعليهم ننمو ونتكامل .

هم يُعطون أكثر ممّا يأخذون ،

والعطاء المُسعد المُريح أغنى من أيّ زاد، وأسخى من أيّة هِبة.

إنّهم في هيكل العبادة البَخور والمِجمرة ، والصلاة والمتعبّد ؛ همُ الظلّ ساعةَ يرتدّ الظلّ ، وهم الفرحة المزهرة وقد دبّ اليَباس إلى العُروق .

ما تبسّم طِفل إلا تناثرت مساكب الربيع في تزاحم الخضرة واللون والشذَى ؛

ولا بكى طِفل أو توجّع ، إلا دعاك ذلك إلى أنْ تؤكّد قيمتك فيما حواليك ، وتُشدّ إلى الحياة ذاتِها وأنت تُشدّ إلى سرير بكائه وأوجاعه .

وكم تلاحقت كلماته ، فإذا كلُّ منظوم ومنثور ثرثرة محمومين أمام فصاحة الحرف مع اللثغة والعُجمة ، يتراقص على أطراف الشفاه الراعشة : يُحفظ، ويُروى ، ويُلملم بالشفاه .

ليست أحلامُ الصغار أوهاماً ، ولا تخيّلاتُهم أشباح تصوّرات ، هي من صميم الواقع : من صميم المعاناة والفعل اليوميّ .

تتراءى لهم الحقائق مغلقة ، غامضة ، مضيّعة ، فيُثيرون أسئلتهم ويلحّون .

ونتهرّب من أسئلتهم .

يَشغلنا ضَباب الأحداث ، ويحجبنا عن جوهرها ، فنضحك هازئين ... ونفرّ إلى ما نظنّه الجِدّ والحقيقة ... ونحن في هذا ظالمون مخطِئون .

ويكبرون وتكبر أحلامهم ، وتتعقّد مشاكلهم ... أجل

للصغار مشاكل :

« من تكون هذه الراعية الصغيرة يا أبي ؟ وحبّة الرمل على شاطىء بحر الرمال ، كيف نشأت ومن أين تحدّرت ؟ والجمال ؟ والوردة والشوك ؟ والطيور ؟ والحرب ؟ والصلاة ؟ والفتاة اللاجئة ؟ والحبّ ؟ والمواسم والفصول ؟ والخير والشرّ ؟ والفقر والغنى ؟... »

خواطر تستثيرها أصوات الحيـاة المتكاثرة مع تكاثر السنين ، فتنعكس في أسئلة دقيقة محرجة ، ولكنّها تفيد وتعلّم .

أجل . أسئلة الصغار الكبارَ تُعلّم ...

وحسب الأب فرحةً وسعادةً أنّ هذه الأحاديث أطلّت بـه على أجمل ما في الوجود من قِيم ، وأروع ما في الحياة من مواقف إنسانيّة باقية .

كامل العبدالله

محاضر اللمزة قبل أن تولد

الجَنَّةُ الصَّغِيرَة

– أيعجبك عالم البيت إلى هـذا الحدّ يا أبي ، فأنت لا تتركه إلا مضطرّاً ؟..

– يلزم الإنسانُ العالم الذي يحبّه ، المنزل الذي يجد فيه دفءاً وعافية ، والمكان الذي يرتاح إليه قلبه وروحه وفكره .

– وهل أنت واجد ذلك كلّه معنا يا أبي ؟

– لست معكم وحدكم يا بُنيّتي . أنا مـــع نفسي أوّلاً ، أختلي بها ، وأستلهم خواطري ، وأجلو الصدأ عنها ، وأُعدُّها لمواجهة العالم الخارجيّ قادرة منفتحة .

– ومتى لم تكن معها يا أبي ؟

– أتذكرين يوم كدتِ تغرقين في البحر ، منذ أيّام ؟

– وهل أنساه ؟ إنما ما صلة هذا بذاك ؟

– ألفت انتباهك إلى ما حدث لأسألك : هل كنتِ تفكـّرين بنفسك عندما لفـّك التيّار وعصف بك ؟

– لم أكن أفكّر بشيء يا أبي . كان الخوف يتحكّم بي ويسيطر عليّ ، والحاجة إلى الخلاص ، ولا شيء غير هذا .

– هذا هو واقع أبيك عندما يكون في عباب المشاكل والأحداث . يبحث عن الخلاص ، وقليلاً ما يجده كما وجدته ، فيفرّ إلى المنزل بحثاً عن الخلاص الحقيقيّ .

– وهل يَطيب لك أن تظلّ هكذا وحيداً ، في غرفتك أو على الشرفة ؟

– ألم أقل لك لا أكون وحيداً عندما أكون في البيت ؟

– تقصد أنّك تكون مع نفسك ...

– ومعكم أيضاً ...

– ولكنّ هذا لا يكفي يا أبي . كثيراً ما يزعجك صراخنا ، ويثير غضبك ؛ والانطواءُ على النفس يُحدث كذلك فراغاً ، ويُلقي بك في حزن عميق .

– لي رفقاء آخرون أعيش معهم ، وبهم تتجدّد فتوّتي وآمالي ، وينكشف مداي عن آفاق لا تُحدّ .

– أنا لا أعرف أولئك الرفقاء يا أبي .

– ستعرفينهم ذات يوم ... وستجدين معهم ما يجد أبوك ... وليطمئنّ بال الحلوة الصغيرة أنبّهها إلى أنّهم لا يفارقونني أبداً ... أبدأتِ تعرفينهم ؟.. أترين إليهم في غرفة النوم ، وعلى المكتب ، وفي الدار ، وفي الشرفة ، وغرفة الطعام أحياناً ؟..

– بدأت أعرف يا أبي . وأشهد أنّني ما رأيتك مرّة ، بيننا ، إلا وفي يدك كتاب ... أو قلم ...

– وهذا رفيق أنيس كذلك يا أنس أبيك ... هو الصلة الرابطة بين الفكر والحقيقة . هو الذي ينقل بأمانة خلاصةَ ما ينتهي إليه التأمّل ، من جهد الذات المنفعلة ، وزبدة العقل في مخاض الوعي المدرك لحقائق القيم .

– ولكن لوجودك بيننا غير هذه الفائدة يا أبي ، وأنت بهذا تختلف عن الكثيرين من الآباء .

– أأفهم إذاً أنّك سعيدة بوجودي بينكم ، وأنّني لا أضايقكم بما أفرضه عليكم أحياناً من نظام ؟

– تصرّفك هذا يُسلّينا ، يلهي أخواتي الصغار أحياناً . يرَين فيه متعة وغبطة !.. أتغضب لو أخبرتك يا أبي ؟

– أبداً !

– أتعدني بذلك ؟

– أعدك !

– تبدأ التمثيليّة عندما تدخل غرفتك .

– أيّة تمثيليّة ؟!.

– وتتوالى المشاهد ... تبدأ الصغيرة فتعقد ما بين حاجبيها ، مثلك تماماً ، وتعبس ، ثمّ ترفع سبّابتها وتقف على رؤوس أصابعها وتهتف : إخفضوا أصواتكم وإلا ...

– وماذا بعد ؟

– يأخذهم الضحك ، إلى أن يرتفع صوت أختي الوسطى قائلة : « أقسم بالله أن أضرب من لا تسكت عن الصراخ ... » وينفجرن بالضحك من جديد .

– يا للشياطين !!

– أأغضبك هذا يا أبي ؟

– أبداً ... إنما فاتك المشهد الثالث . أيخجلك ، فلا تبوحين لي به ؟

– أبي ، أبي ... أيّ مشهد تعني ؟

– ما تقوم به الفتاة الكبرى . أهي عاقلة مبرّأة مما تقوم به أختاها ؟ أيعقل أن لا تكون الكبيرة هي التي توحي لشقيقتيها بدوريهما ؟

– أقسم لك يا أبي !

– أنا لا أؤمن بالحلّافين يا بُنيّتي . عهدتُك صريحة صادقة ، فظلّي كذلك .

– وما هو طلبك مني ؟..

– المشهد الثالث .

– أبي ...

– لا مفرّ لك ممّا أريد . وثقي من فرحتي به .

– لتكن مشيئتك ...

– إذاً ، يُرفع الستار عن الفتاة الكبرى ، في مشهد وحيد مع أُختيها .

– تدخل الفتاة الكبرى وقد وضعت نظارتي أبيها فوق عينيها ، وحملت قلم الحبر بين يديها ، فتجلس إلى الطاولة ، وتضع الأوراق البيضاء أمامها ... ثمّ تنتفض دفعةً واحدةً وتقف ، وقد أسقطت النظّارتين إلى أرنبة أنفها ، لتصرخ : « وبعدين يا أولاد ... ألن تكفّوا عن الصراخ ؟ أوه ... أريد أن أكتب ... أوه ! أيُقيم الإنسان مع عفاريت ؟ »

– حقًّا إنّك لعفريتة كبيرة ! وماذا كنت تفعلين بعد ذلك ؟

– أغمز بطرفَي عينيّ ، فيتعالى الصراخ من جديد ، مدوّياً ومجلجلاً .

– أي أنّك تعطين الإشارة ...

– أرأيت يا أبي ؟ ها أنت تغضب !

– لا يا حبيبتي . أنا مغتبط سعيد .

– ولكنّني متأسّفة يا أبي !

– وأين داعي الأسف ؟ ظلّي مع شقيقاتك كما كنتنّ . جريئة أن نحوّل عالم الصغار إلى جدّ الكبار وعبوسهم .

– ولكنّك تفرّ من ضجيج العالم الخارجيّ ، لتجد الخلاص والراحة في المنزل يا أبي . أليس هذا الذي قلته منذ دقائق ؟

– وإني واجدُه يا حلوتي . أجده في هـذا الصراخ ذاتِه الذي يصدر عنكنّ ؛ في نبراته الهدوء والطمأنينة للقلوب المتعَبة .

– ولكن ...

– دعي الأوهـام يا بُنيّتي . أنت لا تعرفين ضجيج المصاعب المرهقة لتقابلي بينها وبين ضجيج المرح اللاهي . ولتعرفي الفرق قابلي يا حلوتي بين هذا الضباب الذي يلفّ الفضاء من حوالينا ، والذي يعقد بين السماء والأرض ، وبين هذه الخيوط من الدخان التي تنبعث من لفافة التبغ هذه . أتجدين مجالاً للمقابلة ؟

– أنا لا أعترض عليك يا أبي . أثارني أن نكون سببـاً في مضايقة الأب العطوف .

– ما لك ولهذا . أنظري معي وتأمّلي . أيوحي لك عبوس الخارج غير الهموم والأحزان ؟ ولكن ماذا ترين في خيوط الدخان هذه ؟ إلمحي تلوّي الخيوط وتعـدّد أشكالها ، ألا تلمحين عرائس تقدّم فنوناً من الرقص الرائع المثير ، على هذا المسرح من الغرفة ؟

– ما أروع خيالك يا أبي . تستلهم مشاهد حلوة ، لعلّها هي التي ترتفع بك عن مزالق البشر ، وتبعدك إلى عزلة بيتنا لترى منه ما لا يراه غيرُك .

– ولأرى منه الدنيا يا حبيبتي !

– وكيف تراها يا أبي ؟

– من خلال عينيك وعيني أُختيك وأمّك يا سعادة أبيك .

– إذاً تراها فرحة مرحة ... تراها سعيدة .

– وهل في عيونكنّ غير ذلك ؟

– يبدو أنّك تراهــا على غير حقيقتها ... فهي ليست دائمـاً سعيدة مضيئة ، كما تبدو بمنظار العائلة السعيدة .

– ليس الذي يعنينا هو واقع الدنيا وحقيقة ما يجري فيها . حقيقة كلّ شيء وواقعه ، هو مـا نعطيه من نفوسنا . نحن نصبغه باللون الذي نشاء ونحيطه بالإطار الذي نرسمه ، ونزوّده بالقيمة التي فينا .

– ألحقيقة والواقع ... أأنت تغيّر الحقيقة والواقع يا أبي ؟.. ما ظننتك تدّعي أبداً مثل هذا !

– كيف ترين الدنيا عندما تكونين مغضَبَة مثارة ، حتى ولو كان الفصل ربيعاً أو صيفاً ؟

– عابسةً مقطّبة يا أبي .

– لا زهر ولا ورود ولا ضياء ...

– ولا عرس طيور ، ولا مهرجان عبير ...

– وعندما أضمّك بين يديّ وأرقصك في الهواء ، وأمشي بالقبلة الحبيبة إلى عنقك ؟

– أحسّ الربيع ينتهي إليّ بزهره وضيائه وفرحة سواقيه ، حتى ولو كان الفصل شتاء .

– إذاً أنتِ تجيدين الاستنتاج يا حبيبتي . فهل يفوتك بعــدُ

ما ذكرته لك من معاني صلتنا بالوجـــود ، وفهمِنا له ، وإدراكنا لأبعاده ؟

ـ أظنتني أسعى إلى الحقيقة معك يا أبي ...

ـ وإلى الواقع ...

ـ ولكن لأعطيها اللون والشكل والقيمة التي أشاء ...

ـ حسناً ... حسناً ... كم أنا فخور بك يا حلوتي .

الدُّمُوع الضَّاحِكَة

جاءته ذاتَ يوم باكية .
مسح دموعها بكفّيه ..
لم يكن ينتظر حتى تمتدّ يدُه إلى منديله ،
كان يخاف على خدّيها لهب الدمع الفائر ..
وخدّاها برعم ورد ما تنفّس بعد ..
ولا وخزته أشواك الأذيّة ..
ولا لفحته شمس الهاجرة ..
مسح دموعها .. وضمّها إلى قلبه ..
– لماذا يتناثر اللؤلؤ يا حبيبتي ؟
وقبل أن تجيب ، رفعها بين يديه ، وأرقصها في الهواء رقصة الفرح المداعِب ، وضحكت ..
يا للدموع الضاحكة في نشوة الطفولة المبرّأة !
وتدلّت خُصَل شعرها على وجهه .
وانسكب الشلاّل الأسودُ فوق جنّته اليابسة .

تدفّق سخيّاً ،
فأورقت بعد جفافٍ ورودُه .
وتبسّمت الحياة في رياحينه .
وغمرَها بضياء جديد اندفع من قلبه واندفع من عينيه ..
فتهلّلت مشرقة ..
ولكنّها عادت فعبست ..
وعقدت ما بين حاجبيها .
أنّى للندى أن ينعقد ؟ .
أو للضياء أن يُشدّ إلى التواء ؟
بلى ، لقد استطاعت ...
أُنظر إليها ،
أُنظر إلى قبضتها ،
إنها تشدّ أصابعها
وتَجمعُها ..
قدرت الأصابع حيث عجز الجبين أنْ يتجعّد .
– ومَنْ تُهاجمين يا صغيرتي ؟
أرى إلى قبضتك تشدّ وتشدّ وترتفع .. وتُهوي ..
أخاف على الشرايين البراعم أنْ تتمزّق .
– سأقتلها يا أبي ..
سأقتلها ..
– أنتِ تقتلين يا صغيرتي ؟؟
– سأمزّق وجهها بأظفاري .

لن أترك شعرة على رأسها ..
سأرميها إلى الأرض ..
– ماذا بك يا بنيّتي ؟
على من تتكلّمين ؟.
بدأت أخشى عليك ..
تعالَيْ إلى قلبي .. واهدئي .
– دعْني يا أبتاه .
يجب أن أفعل ذلك ..
– تفعلين ماذا ؟
– أقتلُها ..
– أنتِ ؟؟
– لقد أخذتْ لعبتي يا أبي ،
وحطّمت رأسها ،
ومزّقت ثيابها ،
وكسرت ساقها ،
أنظر ،ها هي ساقها في يدي..
لقد رمتْني بها ..
– ستحصلين على غيرها يا بنيّتي.
– سأحطّم رأسها ..
سأمزّق ثيابها ..
سأكسر ساقها ..
سألقي بها في وجهها ..

سأميتها كما أماتتْ لعبتي ..

– وهل ماتت لعبتك فعلاً يا صغيرتي ؟

– ألا تنظر إلى أشيائها المتناثرة يا أبتاه ؟!

– بلى . ولكنْ يمكنها أن تعيش من جديد ..

– من ؟. لعبتي ؟. وكيف يا أبي ؟

– أليومَ تعود إليك لُعبتك يا عزيزتي ..

– أليوم ! أتريدني أصدّق يا أبي ؟

– وهل يكذب أبوك يا حبيبتي ؟.

– أبداً ..

– ولِمَ إذن تشكّين ؟.

– أنا أتساءَل ولا أشكّ يا أبي .

– أتهدئين .. لو عادت لعبتك اليومَ يا بنيّتي ؟.

– أجل يا أبي ..

– أتتسامحين كذلك ..

– ولكنّها قتلت لعبتي .

– ألم أقل لك إنّ لعبتك ستعود من جديد ؟

– نعم !

– ألم تصدّقيني ؟

– أجل صدّقتك ..

– إذاً .. انتهى كلُّ شيء ..

– ولكنّها بعنفٍ مزّقت لُعبتي ، وبشراسةٍ حطمت رأسها ، وبقسوة كسرت ساقها .. ورمتني بها ..

– ولهذا تريدين أن تحقدي ..
– لم أفهم يا أبي .
– أنتِ لا تفهمين ؟. حسناً .. ولكنّك تعرفين يا بنيّتي !
– أعرف ماذا يا أبي ؟
– تعرفين أن لا تتسامحي ..
– أهذا هو الحقد ؟
– وأكثر .. إنّه البغضاء ..
– وماذا تعني يا أبتاه ؟.
– أأنتِ لا تعرفين معنى البغضاء ؟
– أبداً ..
– بلى .. أنت تعرفين ..
– أعرف ماذا ؟.
– تعرفين ألّا تحبّي ..
– أهذه هي البغضاء ؟
– أجل .. وأين رفيقتك الآن يا صغيرتي ؟.
– من ؟
– رفيقتُك التي تريدين أن تقتلي .
– أنا ؟.
– أن تحطّمي رأسها ..
– أبي ...
– أن تمزّقي ثيابها ..
– أبي .. أبي ..

– أن تكسري ساقها ..

– أوه .. إرحمني يا أبي .

– ماذا بك يا عزيزتي ؟.

– أُحسُّني أشتعل يا أبتاه ..

– ماذا بك يا حبيبتي ؟

– في قلبي نار ..

– هذا هو الحقد يا صغيرتي .

– وفي نفسي حُمَّى تلتهب ..

– إنَّها البغضاء يا بنيّتي ..

– متى كنتَ قاسياً يا أبي ؟

– أنا .. قاسٍ ؟!

– تجدُني أتعذّب ولا تنقذني ..

– من .. أنا .؟

– لم أعهدك من قبلُ هكذا قاسياً .. أين الطبيب يا أبتاه ؟

– أأدعو لك رفيقتك ، يا رفيقتي الصغيرة ؟

– وماذا تنفعني لو دعوتها يا أبتاه .. أُريد من يريحني ..

– هي وحدها تُريحك يا حبيبتي ..

– لقد كانت دائماً تُريحني .. ولكن ..

– ولكن ماذا ؟ أتعودين إلى حديث الدُمية .. أأدعوها لك لتريحك من جديد ؟

– من ؟

– رفيقتك ..

– أأنت عاجز عن أن تحميني يا أبي ؟

– أُحاول يا صغيرتي ..

– تحاول ماذا يا أبتاه ؟

– ان أحميك ..

– وممَّ تحميني ؟.

– ممّا يعذّب قلبك، ويشتعل في نفسك .

– أبي .. أبي ..

– ماذا تريدين يا حبيبتي ؟

– مَن القادم إلينا ؟.

– أين ..؟

– هناك في طرف الحديقة .

– هي .. أظنّ أنـّها ..

– أجل .. عرفتها ..

– هي رفيقتك قد عادت .

– وماذا تحمل في يدها ؟.

– لعبة ..

– لعبة ؟ إنـّها لعبتها ..

– هذا ما أعتقد يا بنيّتي ..

– ولمَ تأتي لي بلعبتها ؟.

– ألم أقل لك إنّ لعبتك ستعود ؟.

– أجل .. ولكنّني ظننتك ستشتري لي واحدة ..

– لم أقل ذلك يا صغيرتي ..

– وماذا قلت ؟.

– قبل أن أُجيب أودّ أن أسألك يا حبيبتي ..

– إسأل يا أبي .

– بمَ تفكرين الآن ؟.

– وبمَ تريدني أُفكّر ؟

– هذه هي فرصتك ياصغيرتي قد حانت .

– أيّة فرصة تعني ؟.

– ألن تقتلي رفيقتك كما توعّدتِ ؟.

– من قال ذلك يا أبي ؟

– أنسيتِ يا حبيبتي ؟

– أُحسُّني مرتاحة ..

– ألم تعودي تُحسّين باللهيب المحرق ؟.

– أبداً يا أبي .. أرى الفرحة تملأ نفسي .

– هو التسامح يا غاليتي ..

– وشوقي إلى أن أضمّ رفيقتي إليّ يغمرني بالسعادة .

– هي المحبّة يا إنسانتي الصغيرة .

– دعني أُقبّلك يا أبي .. فقد تحرّرت .

– هذه رفيقتك قد وصلتْ .. إنّها أحقّ بقبلتك مني ..

الوِلادَةُ الجَدِيدَة

– ألا يُثيرك هذا المشهد يا أَبي ؟

– أيّ مشهد يا بُنيّتي ؟

– ذلك الطفل ، ألا تسمع بكاءَه ؟

– أجل أرى وأسمع . ولكن أين أمّه ؟

– هذه هي تسرع إليه . أتراها معي ، من على هـذه الشرفة يا أبي ؟

– وهي تضمّه إليها وتطعمه ... يا لها من أمّ !

– ماذا ؟ أتعترض عليها ؟ أفي الدنيـــا يا أبي أنبل من أمّ ، وأكثر تضحية ؟

– لا أُحبّ الأولاد يبكون ...

– إنّهم صغار ... ومن يمنع صغيراً أن يبكي ؟

– بكاء الصغار ليس هواية يا حلوتي ، هو حاجة ، هو سلاح لدفع أذيّة . يبكي الطفل ساعة يتألم : عندما يؤذى بمرض ، أو بجوع ، أو باعتداء طارىء .

– هو ردّة فعل طبيعيّة إذاً ؟

– ألأقوياء لا يبكون يا حلوتي وإن تألّموا . هو يبكي لأنه ضعيف . وهو غير مسؤول عندما يبكي .

– ومن هو المسؤول يا ترى ؟ أمّه ؟ أين مسؤوليّتها ؟ أترى إلى تلك الأمّ ، بأيّ عطف تحنو عليه ، وبأيّ حنان تطعمه ؟

– ألأمّ الجاهلة وحدها هي لا تطعم أولادها إلا إذا بكوا .

– ولكنّها لا تعرف أنّهم جائعون إلا إذا تعالى صراخهم .

– هذا هو جهلها . عليها أن تعرف حاجات الصغار جميعها . بقي لي سؤال يا بنيّتي .

– وما هو يا أبي ؟

– هل لك أن تعرفي إن كانت تطعمهم حالما يبكون ؟

– أحياناً يبكون ولا تطعمهم .

– وهذا أيضاً من جهلها ؛ فمن غير الطبيعيّ أن نتّهم أمّاً في عاطفتها ، ولكنّ العاطفة تظلّ ناقصة إذا لم تعتمد حسن الفهم الذي يُؤدّي إلى حسن التقدير . وكثيراً ما تكون العواطف مخرّبة .

– سبق وقلت يا أبي إنّ الكبار لا يبكون ، وهل هذا صحيح ؟

– لقد قلت : أقوياء النفوس من الكبار لا يبكون . ولم أعنِ ضعفاء النفوس ، أولئك الكبار الصغار !!

– وهل يبكي هؤلاء ؟

– يحاولون الاستعاضة بالنحيب والعويل عن ضعفهم .

– وهل يؤدّي بهم ذلك إلى نتيجة ؟

– نتيجة مخزية جداً . فمتى سمعت يا بُنيّتي أنّ عويلاً حرّك محراثاً ، أو أدار آلة ، أو بنى أهراماً ، أو أوصل حقّاً إلى صاحبه ؟

– وكيف ينبّه المحرومون إلى حقوقهم يا أبي ؟ أليس بالتذمُّر ، والتشكّي ، والتشهير بالمأساة !؟

– هذا مأتم وتشييع جنازة . وأخطر ما في الأمر أن يؤدّيا معاً إلى دفن المطالب والحقوق فلا تُردّ . والتنبيه إلى ذلك يكون بالجهاد المثابر .

– وكيف تريد من الطفل أن يصل إلى طعامه ؟

– بالبكاء ! هذا هو سلاح جهاده الوحيد اليوم .

– ماذا ؟ ألم تقل إنّ هذا لا يؤدّي إلى نتيجة ؟

– وهل تنتظرين من الضعفاء المغلوبين على أمورهم غير ذلك ؟ عندما يصبح الصغار كباراً قادرين ، سيصلون إلى حاجاتهم بغير البكاء يا حلوتي .

– وكيف يصلون ؟

– يعملون ويجدّون ، ويُسهمون في الأعمال العظيمة . وساعة يتخلّفون يكونون هم وحدَهم المسؤولين .

– أنت ترفع المسؤوليّة إذاً عن الأمّ يا أبي ؟

– ماذا تبقّى من دور للأمّ بعد الحضانة والنشأة الأولى ؟ شبّ الصغار عن الطوق ، وأصبحوا هم ، جميعاً ، العائلة التي يقوم

عليها وجود البيت ومستقبله .

ـ أتجد صلة بين الأمّ والدولة يا أبي ؟

ـ ألدولة ؟ أبدأت البُنيّة الطالعة تشبّ عن الطوق ؟ وماذا تريدين أن تعرفي من أسرارها ؟!

ـ أسرار الآلهة للآلهة يا أبي .. ما طمحت إلى الخوض فيها . إنما يحرّكني الشوق إلى معرفة الصلة بين المواطن والدولة التي يُفترض فيها أن تحميه وتؤمّن له العيش الكريم ؛ بين الابن والأمّ .

ـ ألدولة عندما يكون الأبناء قاصرين هي تلك الأمّ التي تنحصر فيها مسؤوليّة العناية بالصغار . ولكنّ دولة الكبار الراشدين ليست في رعاية فرد أو مسؤولين ، ولا يصنع وجودَها شخص ؛ أفرادها ، واحداً بعد واحد ، كلّ في نطاق تخصّصه وقدرته ، وحدة متماسكة جاهدة : ترسم وتعمل ، وترفع البناء .

ـ والأمّ ، هل يختفي دورها يا أبي ؟

ـ أبداً يا حلوتي . هي هذا الجهاز المعنويّ الذي يوكَل إليه ، باسم الجميع ، أمر تصريف الأمور وتحقيق الأمنيّات الكبيرة . وفي تجاوبٍ سليم يتمّ الوصول إلى الغاية المنشودة .

ـ وسيكون هناك صغار ، أليس كذلك يا أبي ؟ !

ـ ألحياة في توالد متواصل ، وفي إشراق وغياب ، ولا يعقل أن يتمادى العمر ولا تتمادى الولادة ، وأن يهرم الكبار ويختفوا ، ولا تعود البراعم إلى الطلوع والنموّ والتفتّح . هذه هي سُنّة الحياة ، ولا دفع لإرادتها يا بنيّتي .

– أعرف هــذا يا أبي ، ولكنني أردت أن أسأل إذا كان سيوجد هناك صغار يبكون ؟

– وستظلّ هناك أمّهات حانيات ، يمسحن دموع الصغار ، ويمددن الشرايين النامية بالحياة ، إلى أن تمتلىءَ وتعِدَ بالبقاء .

– والكبار ، هل سيظلّ في الكبار منْ يبكي يا أبي ؟

– هذه سُنّة في الوجود كذلك ؛ ارتفــاع وانخفاض ، خــير وشرّ ، قدرة وميوعة ... ولكن لم تكن نتائج البكّائين دائمـاً سيئة . كانوا يحصدون فوائد أحياناً .

– إذاً كانت تعود الأمّ إلى إطعام صغارها بعدما يُلحّ البكاء .

– أو كانت تُجــبَر على ذلك . يثير بكاءُ الضعفاء الأقوياء ، فيجمع قواهم إلى قوى القادرين ، وباسم الحقّ باللقمة والحقّ بالحياة ، ترتفع الأصوات هدّارة ، وتنتفض النفوس جبّارة ، وترتمي شوامخ الباطل عند أقدام الثائرين .

– ويستريح الجميع بعد النصر فيهدأون ... وربمـا ينامون ... أبي ، أنظر ...

– هل يُطلّ فُضول الابنة الحلوة على مشهد جديد ؟

– لقد شبع الطفل ، فهدأ ونام يا أبي ...

– لن يطول ذلك !

– ماذا ؟ شبعه ؟

– ونومه أيضاً .

- وأيّ جديد في هـذا يا أبي ؟ يغفو الإنسان ، ولكلّ حي غفوة ، وبعدها يعود إلى الحياة من جديد . الجماد وحده لا يُفيق .

- الإنسان أحياناً ، وكذلك بعض الأشياء لا تُفيق .

- هو سلطان الموت ، ومن ينجو من ذلك السلطان ؟

- لا ! لست على هـذا أتكلّم . عنيت بعض الذوات الحيّة التي تعيش ، ولكنّها حيّة ميتة .

- وكيف يا أبي ؟

- ألم تتعرّفي أبداً إلى إنسان لا قيمـة لوجوده ، لا يسعى إلى رزق ، ولا يتنفّس عن جهـد مُثمر ، ولا يبدع أثراً ذا قيمة ؟!

- كأنّك تتحدّث عن جارنا ... هو مثال لما قلتـه . يدفع بامرأته وبأولاده الصغار والكبار إلى تحصيل المال ، من أيّ سبيل ، لينفقه هو في السكر واللذائذ المخجلة .

- هذه حقيقة ... وفي الكائنات الحيّة الأخرى ما يشبه هذا الإنسان الميت الحيّ ، فتكون عبءاً على غيرها وكائناً فضوليّاً يعيش على بقايا الآخرين ولا جهد ، ليكون لهـا ، من كسبها ، رزق جهادها .

- كثيراً ما يُستغنى عنها ؛ تُبعد أو تُنتزع ، ولا يبقى لهـا وجود .

- ليس هذا ممكناً بالنسبة إلى الإنسان يا ابنتي .

- تعني أنّ القدرة التي أوجدته هي وحدها المؤهّلة لأن تنتزعه ،

ولا تنتزعه أبداً حساباً له على قيمة وجوده !

– وماذا يكون من شأنه ، من شأن بطلان قيمته ؟

– يستمرّ بباطله ، ويعيش ثقـلاً مرهقـاً ... ويظلّ كالصغار الذين يظلـّون يبكون ، ولا يكبرون قادرين .

– وماذا يكون من شأن أُمّه الحياة ؟

– تهمله متجاهلة حيناً ، وتعود لتـُمدّه ببعض الفضلات الباقية .

– وهلّا يشاركون إذا ما استـُنفروا ، ليُمدّوا الحيـاة ببعض ما لها عليهم ؟

– يحتاج ذلك إلى جهد يا بُنيّتي ؛ إلى تحريك نفوسهم على واجب ، وتوجيه أذهانهم إلى رسالة ؛ وبعـد ، ينضمّون إلى الكلّ للإسهام في عمليّة التكامل المجدي .

– أنت تثيرُني يا أبي !

– أثـَقـُلَ حديثي عليك ؟ ..

– أبداً .. فقد علـّمني أن أكون حرباً على البكاء والبكّائين .. وأن أحمل المشعل في مسالك الجهـاد الطويلة ... لقد بشّرني بولادة جديدة يا أبي .

مَن هُو أبُوهَا يا أبي ؟

متى تُراها تعود ؟

تأخّرت على غير عادتها ...

ألمجلس ينتظر ...

والخواطر متنبّهة متواثبة ، تُسابقُني إليه ...

أينَ الحبيبةُ الحلوةِ تملأ هذا الفراغ بالأسئلة الذكيّة المتحدّية ؟

« ماذا تقول يا أبي ؟ وماذا تعني ؟ »

« لِمَ تفكّر هكذا ولِمَ لا تفكر ؟!. »

« أرى غير ما ترى ، وأعي غير ما تعي ... »

جدال عنيدٌ حيناً ، ومتساهل حيناً آخر ، ومرتدٌ إلى عنادٍ ، في أكثر الأحيان ...

ولكنّه أنيس ، يبعث النشوة في اللقاء الحبيب ...

ما أروع النفوس الناشئـــة تنمو بين يديك ، وتتكامل...

في القلق تنمو ، وفي التحدّي تتكامل ، وعلى صحو الغـــدِ المؤمّل تُشرق وتـُطِلّ ...

ومع هذا وذاك ، تهنــأ الأبوّة العاطفـة ، وتطمئِنّ سعيدة رضيّة ...

– من يقرع الجرس ؟ هذه هي تعود ... ما نبّهت يومــاً إلى وصولها إلا بطبل وزمر ...

على مهلك يا حلوتي ... ها أنا أفتح ... ضجّت أُذناني بالرنين المزعج ...

– إستعدّ يا أبي ... إفتح ذراعيك ... هـــا أنا أقفز ... حسناً ... تهيّأ ... هوب ...

– يا لكِ من طفلة عذبة ... ولكنّك كدت تسقطين من بين يديّ ...

– متى عجزت اليدان المحبّتان عن حمل المحبّة ؟.. ألم تقل لي إنّني أخفّ ما يُحمل يا أبي ؟

– يداي لا تعجزان يا حبيبتي ... تعوّدتا حمل أثقال جسام ... حقاً أنتِ أخفُّ ما يترامى بين يديّ ... ولكنّ المحبّة تزلق ... خفت عليك مع التسرّع تزلقين ... وأكثر ما تزلق هي النفوس الطاهرة المحبّة ...

– والآن ماذا ترى ؟

– أرى الرشاقة الحذرة تستقرّ ، وإلى الصــدر الحبيب يستند

الرأس الصغير الذي لا يهدأ ... ولا أظنّ ذلك الهدوء يطول ...

– بلى يا أبي ... دعني إلى جوارك ... أرح نفسي بحنانك ... أنا محتاجة إليك .

– خير إن شاء الله ... متى تنفّست وردتي إلا على صحو ؟

– تتوالى عليّ الأسئلة ولا أعرف لها جواباً يا أبي ... وهي مثقِلة محيِّرة ... تشغلني شؤونُ مَن حواليّ من الرفقاء ...

– أبَدأ البرعم يتفتّح على أشعّة شمس الربيع ؟ أمشت يد الحياة إلى الأجفان الحبيبة تمرّسها بقدرة التطلّع المتمادي ؟

– أتمزح يا أبي ، وأنا ؟..

– وأنت ماذا يا غاليتي ؟

– أنا قلقة ، أنا مشرّدة الخواطر ... ألم تتنبّه إلى هذا يا أبي ؟

– ولكنّ هذا لا يثير يا حلوتي ... قلق البرعم أمام وهج شمس الربيع لا يؤذي البرعم ، بل يُنضجه ، ولفح النسائم الدافئة يحرّك الجفون المطبَقة على تفتّح أنيس مريح .

– ما تعوّدت مثل هذا من قبل ... أُحسّ طنيناً عجيباً في أذنيّ ... وكابوساً يُطبق على صدري ويشدّ .

– هي بوادر النموّ يا فرحتي ... هي العافية تدبّ في الشرايين فتتمدّد ... وهي حيويّة تمشي إلى الذهن فتحرّك الخواطر وتطلقها من الكوامن الدافئة ...

- أريد أن أبكي يا أبي ... كأنّ الدموع إبرٌ واخزة تنحبس فتؤذي ... أُحسّ بها توشك أن تنفجر ...

- ليتها تسيل يا حلوتي ...

- ألا يؤذيك أن أبكي يا أبي ؟

- الدموع تغسل الذات وتجلو صفحتها ... ألا تنظرين إلى المرآة يا حبيبتي ؟ ألا ترين صورتك واضحة صافيةً عليها ؟ سترين بعد الدموع صورة نفسك على حقيقتها في مرآة ذاتك ...

- وهل تُعيد دموعي الفرحةَ إلى قلوب التائهين المضيّعين يا أبي ؟ هل تعيد إلى وجوههم اللّون ، وإلى نفوسهم الأمل ؟

- عمّن تتحدّثين يا بُنيّتي ؟ أين أنت من التائهين المضيّعين ؟

- لن تظلّ تخفي الحقائق عنّي يا أبي ... الحياة أكثر صراحة ... الأسرار التي تودّ إخفاءها تُطلّ ، ذات يوم ، ولو مَهّدْتَ لها من نفسي لكانت أقلّ وقعاً ، وأخفّ أثراً ...

- أراك تنتقلين إلى الوقائع يا حلوتي ... تتحدّثين عن الأسرار الخفيّة ... كم يثير أمرُك عجبي ! هل لي أن أقف على واحد من تلك الأسرار ؟

- سألتُها أمسِ عن أبيها : من يكون ؟ وما هو اسمه ؟ فذكرته وبكت ... وانتقل الحديث إلى معرفة بلدها ، فتأوّهت لتقول : يقولون إنّني بلا أهل وبلا بلد ...

- مستحيل ... أهي قالت لك ذلك ؟ ومن تكون يا ترى ؟

ـ هي لا تعرف من تكون ... صدّقني يا أبي ...

ـ ولكنّها هنا تقيم ... إذاً هي ...

ـ أجل إنّها هنا ... وتعرف مكان ولادتها جيّداً ... وهي بلا بلد ...

ـ ألم تولد كذلك بيننا ؟

ـ ولدت حيث تقيم ... وعلى أرضنا نشأت وتنمو ... ولكنّها تعرف أنّها في غير بلدها تقيم ...

ـ من قال لها ذلك ؟.. من همس في ذهنها قلق الباطل ؟.. كم أودّ أن أعرف ذلك المجرم المضلّل ...

ـ وماذا فعل ليكون مجرماً ومضلّلاً ؟!.

ـ وأنت أيضاً ؟ أيدبّ التضليل إلى نفسك الصغيرة النامية ؟

ـ أتسمّي قول الحقيقة تضليلاً يا أبي ؟..

ـ وأيّة حقيقة ؟ أيجوز لأحد أنْ يحمل الشكّ إلى نفوس الصغار ، وشكُّ الصغار رعبُ ليالٍ وخوفُ مجانين ؟!.

ـ إذاً أنت تُريدها تجهل أنّها مظلومة ، وأنّ لها حقّاً عليها أن تطالب به ؟

ـ هي مظلومة ؟ ولها حقّ ؟ أتمادى الشكّ في النفوس الصغيرة إلى نسج الأخيلة والأوهام ؟!

ـ ووالدها بطل يا أبي ... واجه الأعداء بعنف ... وتمرّد

على الطاغين المستبدّين ... وفتك بالعشرات دفاعاً عن وطنه وكرامة بلاده ...

– أين قرأتم هذا يا صغيرتي ؟.. أتستعينون بالروايات الوهميّة لتزيدوا من قلق نفوسكم ؟!.

– لم يكن ذلك في كتاب الحكايات الوهميّة ... ولم تضمّه بعدُ دفّتا كتاب ... هي سطور في أرضنا كُتبت ، ولم تجفّ حروفُها بعد ... وما زالت الرائحة تعبق وتتمادى إلى القلوب المتقبّلة ، وإلى العقول القادرة ، تستثير وتحيي ... ألا تشمّها يا أبي ؟

– أشمّ ماذا يا صغيرتي ؟.. آه ! ما حدث لك ؟.. إقتربي مني ... أريني يدك ... هل أنت محرورة ؟

– رفقاً بيدي يا أبي ... أطلقها من عقال أصابعك ... حرّرني من قبضَتِك ... العبوديّة لا تُطاق ...

– أتسمّين عطفي وعنايتي عِقالاً وعبوديّة يا حبيبتي ؟.. متى كنت هكذا عاقّة وقاسية ؟!

– مذ شممت عبير الدم يا أبي ... مذ شممته أنا ولم تشمّه أنت ...

– أعدت إلى ... الهذيان يا بُنيّتي ؟ عمّا تتحدّثين ؟..

– لم يكن والدها مثلك لا يشمّ ... يخجلني ذلك يا أبي ... ترامى عبير دم الشهداء ، على أرض الشهداء ، إلى ضمير أبيها فانتفض وثار ... وهوى تاريخاً من مجد ، وقمّةً من شهادة ...

– حبيبتي ... ابنتي ؟..

– ألم تعرف صديقتي بعد يا أبي ؟..

– وهل هي صديقتك فعلاً ؟.. أجئت بها ذات يوم إلى البيت ؟

– أتعرف أباها يا أبي ؟ ألم تخض غمار المعركة إلى جواره ؟ ألم تخفّ إلى نجدته وقد أحاط به الأعداء ؟ أتركتَه وحيداً أعزلَ يواجه الطغمة المغتصبين ؟.. ألم يكن لك شرف المقاومة معه ، وإن لم يكن لك شرف استشهاده ؟

– أننتقل إلى موضوع آخر يا بُنيّتي ؟..

– أنت تقصد ميداناً آخر ، أليس كذلك يا أبي ؟ أظنّك بدأت تعرفه وتعرف ابنته ... أشعر وكأنّك تتحفّز لتنقضّ على العدوّ من جديد ... أحسّ وكأنّك اقتنعت أنّ المعركة لم تبقَ معركة جارك وإنما معركتك أنت أيضاً ... وأنّ الابنة الضائعة التائهة ليست ابنته وحده بل ابنتك أيضاً ... وأنّ الوطن المغتصَب السليب هو أرضك وتربة مطامحك !

– أُمّك تناديك يا بُنيّتي ، أتسمعين نداءها ؟

– بل أسمع نداء صديقتي اللاجئة يا أبي ... وأسمع نداء أبيها الشهيد .

نحنُ نَظلِمُ الصِّغار

– أنت تعبة ؟.. وتلهثين ؟ والعرق يتصبّبُ من الجبين المشرق ؟ ألا تهدأ الفتوّة الناشطة لترتاح وتطمئنّ ؟

– لستُ تعبة لأرتاح يا أبي ، ولست قلقة لأطمئنّ ! متى كان مرح النحْلة ، ونشوة الطيور ، مثقِلاً لأجنحة الربيع ؟

– وأين كانت ترفّ أجنحة الربيع يا حلوتي ؟

– في الحديقة ، بين الورود والرياحين ... ومع الشمس والظلّ ، واللّون والنغم : في معبد الطبيعة يا أبي .

– وهل كانت فتاة الهيكل وحيدة ، تبتهل وتصلّي وتحرق البخور ؟

– ليست العبادة الحقيقيّة وحدة منعزلة يا أحلى الآباء . كنت مع ابن جارنا الصغير ، نلهو ونلعب .

– ولكنّه صغير ... أصغر منك ، فكيف تلعبين معه ؟

– هو بحاجة إليّ يا أبي . ليتك تعرف مشاكله !

– مشاكل ؟ ما هذا المِزاح ؟ أللصغار ، وهم في السابعة ، مشاكل يا بُنَيّتي ؟!

– ألم يكن لي مشاكل وأنا صغيرة يا أبي ؟

– لم أكن أدري بها . تتكاثر المشاكل مع نموّ العمر وتحمّل المسؤوليّات ، ومن أين للصغير العابث جدّ الكبار وأعباء مسؤوليّاتهم ؟

– ليتك تسأل أُمّي يا أبي !

– أتتّهمين أباك يا حلوتي ؟ وماذا تعرف أُمّك أكثر ممّا أعرف ؟

– ألآباء ينشغلون عن أبنائهم . والأُمّهات ليس لهنّ سوى العناية بأولئك الأبناء . وحيث يجد الأبناء دفءاً وحناناً يلتجئون ويحتمون .

– وممّ يلتجئون ويحتمون يا سعادة أبيك ؟

– من مشاكلهم . وفي الجوّ الأنيس الحبيب يهمسون بما يُحسّون ، ويبوحون بما يشكون ويعانون .

– وهل رفيقك الصغير يبوح لك بما يُحسّ وبما يُعاني؟

– أجل يا أبي .

– إنّه لا يكاد يجيد التلفّظ بالكلمات ، فمن أين له القدرة على التعبير ؟

– قليلاً ما يستمع الكبار إلى همسات الصغار ، وإذا استمعوا فليسخروا ، ولكنّ الصغار يا أبي يبوحون بغير الألفاظ والتعابير . في قسماتهم قدرة إيحاء ، وفي حركاتهم وفي عيونهم ما تعجز عنه

التعابير مهما كانت غنيّة . ليتك تستطيع أن تقرأ أحاديث الصغار !

– وهل لك القدرة على إدراك ذلك يا صغيرتي ؟ هــل تقرئين أنت ما لا يقرأ الكبار ؟

– أنا أقرأ حكاية نفسي يا أبي . أجد في الصغير هــذا ذاتي ، وأنا في عمره ، وأرى في مشاعره مشاعري ، وفي تفتّح أعماقـه على ما حواليه تفتّح أعماقي .

– وهل يأتيك شاكياً ؟

– وأحياناً باكياً يا أبي .

– ولمَ لا يذهب إلى أمّه ؟ ألم تقولي : الأبناء إليهـا يلتجئون وبها يحتمون ؟

– هو يأتي من عندها ...

– ومن عندها يأتي باكياً ؟

– هي لا تفهمه . تسخر من خيالاته ، وتسمّي مواقفه عناداً ، ولتفرّ منه ، أو لتنفّره عنها ، تنهره وتطرده وأحياناً تطاله بكلام قارس جارح . ليست جميع الأمّهات واعيات يا أبي .

– لمَ لا يذهب إلى أبيه ؟

– ليست حاله مع أبيـه أفضلَ من حاله مع أُمّه . وماذا ينتظر من أبيه وقد جاء من عمله متعباً ومرهقاً ؟

– إذاً هو يطمئنّ لديك ويهدأ ؟

– يؤنسه أن يتفهّم أحدٌ أحاسيسه ويحترم خواطره .

– وما هي تلك الأحاسيس والخواطر يا حلوتي ؟ هل لك أن تخبريني بها ؟

– وكيف أستطيع ؟ هي أكثر من أن تُعدّ ، وأكبر من أعوامه ، وأبعد مدى من خيالات الصغار .

– إذاً هو غيرُ طبيعيّ .

– أنت تتكلّم كأمّه ... وكالآخرين من حواليه ... أنتم تجدونه شاذّاً غريباً ... وأنا أجده إنساناً يتفتّح على ما في هذا الوجود ، من غير أن يجد من يأخذ بيده في الدروب الشائكة المتعرّجة . هو يُقبل على ما لا يعرف ، فكيف تريد الصغار أن لا يُفاجأوا ؟.. وماذا تقول فيهم إذا فهموا الأشياء كلّ كما يتراءى له ؟

– هذا طبيعيّ ، ولكنْ شرط أن لا يتيهوا في عوالم أبعد مما تقدر أجنحتهم ومداركهم أن تتحمّله .

– أحدث ذات يوم أنّك سمعت حديث سمكة أو حديث وردة يا أبي ؟!

– أهذا ما يهدس به رفيقك الصغير ؟ سمكة تتكلّم في غدير ، ووردة في حديقة ؟! وتعترضين بعد ؟

– إنتزعَ بالخيط والصنّارة السمكةَ من أعماق عالمها ، ورآها تفتح فمها وتتحرّك مضطربة ، وشهدها على الشاطىء تقفز ... وسمعها تتكلّم .

– ألم يسمعْها أحدٌ غيره ؟

– أيسمع الطامعون الظالمون غـــير نداء الطمع الظالم يا أبي ؟ تطغى شهوة الجشع والتملـّك ، وحبّ السيطرة والبطش ، فتطوي كلّ شعور آخر .

– وماذا سمع رفيقـُك الصغير يا ُبنيّتي ؟

– حديث السمكة . روت على مسمعيه حـــكاية ظلم الإنسان وطغيانه ، فحرّكت مشاعره وأسالت دموعه ...

– وكيف سمع ذلك الحديث ؟

– سمع في ارتجافِ جسدها وفي حركات فمها العالق بالصنّارة صراخاً مثيراً ...

– ولمَ لم يحاول إنقاذها ؟

– اتـّهم بعقله عندما حاول . كان أبوه يصطاد السمك ، وعندما سمع صراخه وهو يقبل على السمكة ليلقي بها في المـاء من جديد ، ترك صنّارتـــه وصيده وأقبل على الهاتف يتـّصل بأشهر طبيب أخصّائيّ ... وعقد مناحة مع أمّ الولد ... الشاذّ !!

– ولكنّه ليس شاذّاً يا ُبنيّتي .

– ألطبّ لم يقلْ ذلك يا أبي . علم النفس الحديث حـــكم عليه باختلال الجهـــاز العصبيّ ... وإذا ازداد « اختلاله » فسينقل إلى مصحٍّ ُيعالج فيه .

– وماذا فعل الصغير ؟

– أخذ يبكي ، في دهشة مما يجري حواليه ، وفرّ إلى زاوية نائية من الحديقة حيث وجدته ...

– وبين يديك هدأ واطمأنّ ...

– ظلّ خائفاً يا أبي ... أفرحه أن أفهم مشاعره . أن أتجاوب مع خواطره . أن أسمع معه صراخ السمكة ... ولكنّه بقي ينظر بحذر ، ناحية المنزل ... وحدث ما لم أكن أتوقّع يا أبي .

– وماذا بعد ؟

– سعيت إلى زهرة قريبة ، ومشيت بها إليه ، أزيّن بها شعره الأشقر الناعم ، مسرّية ، مداعبة ... وسألني وكأنّه يحلم : ألم تسمعي صراخ الزهرة وأنت تنتزعينها من أرضها؟ ألا تتألّم الزهرة، كما تألّمت السمكة، إذا قطفت ؟

– يا للطفل العجيب ! إنّه حقّاً مدهش . أهكذا يحلم جميع الصغار يا بُنيّتي ؟!

– لكلٍّ خواطره وأحلامه ... وهذا نوع من الصغار اختُص بوعي مبكر ، على ما أظنّ يا أبي ...

– أنت على حقّ ... وكم هو مريع أن لا يفهم الوالدان مثل هذا الوعي ...

– ولا علم النفس الحديث يا أبي ...

– هنا جانب الخطر يا بُنيّتي . تتعقّد الأمورُ بدل أن

مُحلّ . ويصطـدم الوعي المتنبّه بمـا يحوّله أو يفسده ... فتضيع الطفولة البريئة بين أفكار الكبار المعقـّدة ، واجتهاداتهم الخاطئة .

– إذاً أنت لا تعترض على صداقتي لذلك الصغير يا أبي ؟

– ليت الكبار يؤدّون مثل رسالتك يا حلوتي .

المالُ يُضلِّل

– ماذا حدث يا بُنيّتي ؟ أرى الندى يتدحرج على الوجنات الزاهية ...

– أبي ... أبي ...

– أأنت تبكين يا عزيزتي ؟ أوَقـعَ مـا يُؤذي الطفولة السعيدة ؟.. حرام يتحرّك الأسى في النفوس البريئة ... ما الذي أيقظ البرعم المغلـَق على الألم المبكر ؟!.

– أتذكـُرُ قطعة الدراهم التي أعطيتَني إيّاها أمسِ ... قبل أن أنام ؟

– نعم ... أتذكـّر ...

– لقد ضحكتَ عندما أخذتُ أشدّ أناملي عليها وأشدّ ... ورأيتني أحتضنها إلى صدري وأنا أتوارى في الفراش قبل أن أنام...

– هذا الذي حدث فعلاً ...

– ولكنّها اختفت يا أبي ... إستيقظتُ ولم أجدْها في يدي...

– لعلـّها وقعت في الفراش ...

– فتّشت السرير كلّه ... وكأنّ جنّاً قد ابتلعتها ...

– وهل هذا الذي يُبكيك ؟..

– ألا يؤلمك يا أبي ... أن تفقد شيئاً تملكه ؟.. ألا تؤذيك الخسارة ؟

– أيّة خسارة ياصغيرتي ؟ ألفرق بعيد بين خسارة وخسارة !!

– أتريدني لا أبالي بما فقدت ؟.. أطبيعيّ أن أفقد شيئاً ولا أبحث عنه ... أوْ أسعى ، على الأقلّ ، إلى الوقوف على سرّ اختفائه ؟..

– ولكنّك فقدت قطعة زهيدة من المال ... والمال أقلُّ ثمناً من الدموع ...

– ماذا تريد أن تقول يا أبي ؟.. أكاد لا أفهمك !!

– ألمال مادّة يا صغيرتي ... وسيلة عارضة لقضاء حاجة ... حرام أن تستعبد المادّة نفوسنا ...

– أنا لا أحسّ أنّ المال يؤثّر عليّ يا أبي .

– ولكنّك بكيت ... أثارك أن تفقدي قطعة صغيرة من المال ...

– كنتُ فرحة ... أملت أن أتباهى بها أمام رفيقاتي الصغيرات ...

– ألم أقلْ لك إنّ من الخطر أن تستهوي المادّة نفوسنا ...

– ماذا ؟

– أن يثير المالُ شعورنا بالتباهي ... ولو أساء ذلك إلى

الآخرين ...

– لن يسيء إلى أحد ...

– ألن يدفع وجودُ المال معك إلى غيرة رفيقاتك منك ؟..

– ربما ...

– وإلى حسدهنّ ؟..

– جائز ...

– وإلى انخداعك أنت عن حقيقتك ؟

– ماذا ؟

– إلى غرورك يا عزيزتي ... إلى أن تعتقدي بامتلاك ما لا يمتلكه غيرك ... وفي الواقع أنت لا تمتلكين أكثر من ثمن قطعة من الجليد ... لا تبرح حتى تذوب ... وتتحوّل إلى سائل لزج ... لا قيمة فيه ... ولا نفع له ...

– أبي ... أبي ... أأعطيت شقيقتي كما أعطيتني ؟..

– حرمتها المال أمسِ ... أحببت أن أعطيها درساً في أن لا تهمل واجباتها كما أهملتها...

– إذاً كان المال وسيلتك في تأديب شقيقتي ...

– ألم ترَيْ تأثير ذلك عليها يا عزيزتي ؟..

– أجل رأيت ... لقد شهدتها تبكي ...

– لقد كان درساً قاسياً ...

– ولكنّك لم تثر يا أبي .

– ولِمَ أثور ؟

– لأنّ شقيقتي قد بكت...

– سيفيدها البكاء ... سيعلّمها أن لا تهمل واجباتها بعد اليوم ... ألا تعتقدين ذلك ؟!.

– أجل ... يا أبي ... ومنذ تلك اللحظة أخذت تمسح دموعها لتعدّ دروسها ... وقد نمتُ ... وبقيَتْ هي ساهرة ... ولكنّها لن تدرس بعد اليوم من أجل مستقبلها يا أبي ... ولا من أجل العلم والفائدة ... ستكون لها غاية غير ذلك .

– أيّة غاية أيتّها الفيلسوفة الصغيرة ؟..

– المال يا أبي ... لن تدرس إلّا في سبيل أن تعطيها قطعاً من النقود ...

– وأيّ ضرر ، ما دامت تحقّق بذلك الهدفَ المرجوّ ؟..

– ألم تقل لي إنّ من الخطر أن يستعبد حبّ المال نفوسنا ؟..

– هه ... أجل قلت ذلك !

– وها أنت تدفع شقيقتي إلى تلك العبوديّة ...

– لم أُرد ذلك ...

– وغفرت لها تبكي لإنّها خسرت قطعة من النقود ... وقادك هذا إلى التناقض يا أبي ...

– كيف ... يا ...

– غفرت لها تبكي ... وقسوت عليّ عندما بكيت ...

– ما عنيت ذلك يا حبيبتي ... خطر لي أن أوجّهها إلى ما فيه خيرها .. وأن ...

– أبي ... أبي ... أنظر يا أبي ...

– هذه شقيقتك قادمة ... أين كانت ؟

– رأيتها تخرج من الدكّان المجاور ... أتلمح شيئاً في يدها ؟

– أ ... أجل ... أظنّها تأكل قطعة من الحلوى ...

– لا ... بل من الجليد ...

– تقصدين البوظه ...

– ألاسم واحد يا أبي ... ولكنّ الأمر أكثر أهميَّة مما تتصوّر...

– أيّ أمر ؟

– ألدراهم يا أبي ...

– وما صلتنا بها الآن ؟

– ألا تجد غريباً فيما تراه ؟

– وماذا أرى ؟..

– ألدراهم في يد شقيقتي ...

– لم ألمحْ دراهم في يدها يا بُنيّتي ...

– وماذا لمحت يا أبي ؟

– قطعة ... تأكلها ...

– أنا لمحت غير ذلك ... لمحت يدَ أختي تتسلـّل في الظلام إلى يدي ... وفي حذر عجيب تأخذ قطعة نقودي ...

– ماذا تقولين ؟

– ألم تخبرْني أنـّك حبست النقود عن شقيقتي قصاصاً لهـــا ... وتربية ؟ وهذه هي تشتري ... وتأكل ...

– ولعلّ أحداً أعطاها المال ...

– أبداً يا أبي ... ألحاجة أمّ الاختراع ...

– أيّة حاجة ؟ وأيّ اختراع؟!

– ألحاجة إلى المال !! واختراع الوسيلة الموصلة إليه ...

– أتظنـّين أنْ أُختك ...

– لا أظنّ ... بل اعتقد ... لقـــد غفوت وبقيتْ هي ساهرة ...

– ولمَ تفعل ذلك؟ من دفعها إلى هذه الآفة ؟

– ألتربية يا أبي ...

– ماذا تعنين ؟

– ألوسيلة التي توصل إلى الهدف يا أبي ...

– أتضعين المسؤوليّة عليّ ؟

– كلـّنا شركاء يا أبي ... لو لم أسعَ إلى المال لما سعت إليه أختي ... ولو لم تتـّخذِ المال وسيلة إلى التربيـة لما أيقظتَ حبّ المال في نفسها ... ولكنّ الفرصة لم تفت يا أبي !

ـ أيَّة فرصة يا حبيبتي ؟..

ـ فرصة تربيتنا .

ـ ألدى الطفولة حلّ عجز الكبار عن الاهتداء إليه ؟..

ـ لن تتمادى شقيقتي فيما انتهت إليه ...

ـ سيكون قصاصها عنيفاً ...

ـ أرجوك يا أبي ... ألعنف لا يصحّح ... نحسّ نحن الصغار بالتمرّد كلّما قسا الكبار علينا ...

ـ أصحيح هذا ؟ وما الحيلة إذاً ؟

ـ سأقدّم قطعة نقودي بعد اليوم إلى أختي ... وستقاسمنا شقيقتي ما تشتريه ...

ـ إذاً لن تعاتبيها ... ولن تغضبي عليها ...

ـ سأجد حاجتي في حاجة أختي بعد اليوم يا أبي ... ألا توافقني في هذا ؟..

ـ أجل يا بُنيّتي ... ولكن ...

ـ ولكن ماذا يا أبي ؟

ـ يثيرني هذا الذي أسمعه ... هذا أكبر من عقلك يا صغيرتي ...

ـ ربما ... ولكنّه ليس أكبر من قلبي يا أبي ...

النَّعجَة الجَرِيح

ـ ألرّاعية الحلوة مرّت أمس يا أبي .. عادت إليّ لتُحدّثني حديثاً عجيباً .. ليتك التقيت بها مثلي.. إنّها رائعة .. مُدهشة..

ـ أيّة راعية يا بُنيّتي ؟.

ـ تلك الحلوة الجميـــلة ، بوجهها الورديّ الضاحك ، وجدائلها الذهبيّة المرسَلة ، وعصاها الطويلة ..

ـ وأين تلتقين بها يا صغيرتي ؟

ـ في الغابة المجاورة .. حيث يلتقي الصغار ليلعبوا ..

ـ ومن أنبأك أنّها راعية ؟

ـ ألم أقل لكَ إنّها تحمل عصا طويلة يا أبي ؟

ـ وهل يكفي الإنسان أن يحمل عصا ليكون راعياً ؟.

ـ والنعاج يا أبي .. والخِراف .. ليتك تراهـــا تسوقها بحنوّ الأمّهات المرضعات .

ـ إذاً هي راعية حنون ..

– وأكثر مما تتصوّر .. لم أشهد من قبلُ راعياً يُحبّ قطيعَه كما تُحبّه .

– إنّها ميزة الراعي الحقيقيّ يا عزيزتي .. ولكن .. لمَ العصا ؟ ألم تذكري أنّها تحمل عصا ، عصا طويلة ؟

– صحيح .. وإنما لم أرَها مرّة تستخدمها لقَسْوة .. شهدتُها في أوّل اللُقيا فوق كتفيها وقد أراحت يديها عليها .. ولمحتها تُرسلها لتُفسح لها وللنعاج طريقاً في المسلك الوعر بين الشُّجَيرات .. بلى . شهدتها مرّة تهوّل بهـــا على إحدى النعاج الضالّة .. وثانية تردّ معتدية تطاولت على المزروعات المجاورة .

– ولكنّك قلت إنّها راعية صغيرة .. ومن أين للصغار مثلُ هذه الحكمة في الرعاية ؟

– وهل يُدهش الكبـــارَ أنْ لا يقسو الصغار ، أو أن يفيض حنانهم ؟

– ما قصدت ذلك يا صغيرتي .. وإنما أدهشتني حكمةُ راعيتك في تصريف شؤون القطيع .

– أيّةُ حكمة يا أبي .. لا أظنّنـــا نحن الصغارَ نفهم مـــا تعنيه .. نحن نعرف أن نحبّ .. المحبّة وحدَها أدّت بصديقتي الراعية إلى الرعاية الناجحة .. ألا ترى ما أرى ؟

– أجل .. يا حبيبتي .. وهل هي حقّاً كذلك ؟.

– أأنت تحبّني يا أبي ؟

– أوتشكّين في ذلك يا حبيبتي ؟!

– أبداً ..

– ولمَ تسألينني مثل هذا السؤال إذاً ؟

– وددت أن أعرف حقيقةً يا أبي !

– وما هي يا بُنيّتي ؟

– كانت الراعية الحلوة مضطربةً أمس ..

– ولماذا ؟

– وبكتْ ..

– وما الذي أبكاها ؟

– وانصرفت للمرّة الأُولى عنّي .. لم تُرحّب بي .. ولم تستقبلْني بابتسامتها العذبة وبنظرتها الوادعة السعيدة .

– ألم تقولي إنّها عطوفة محبّة ؟

– أجل ..

– وهل ينقلب الحبّ بين يوم وآخر إلى إهمال وفُرقة ؟

– أوتظنّ أنّها تنكّرتْ لما بيننا ؟!

– وماذا غيرُ ذلك ؟

– ألا يمكن للحبّ أن يتنفّس عبيراً آخر ؟ ألا يجوز له أن يتحوّل ولو إلى حين ، ليكون في الحدث الطارىء أكثرَ عناية أو أكثر عطاء ؟.

أكاد لا أفهم عليك يا صغيرتي .. متى يصبح كلام الصغار غامضاً ومعقّداً ؟

- عفوَكَ يا أبتاه .. أخشى أن أكون هكذا بعيدة عنك .. غامضة عليك .. وأكثر ، يُخيف أن يُغلق الكبارُ قلوبهم عن الصغار ..

- ومتى أغلقتُ قلبي عنك يا حبيبتي ؟

- ساعةَ لم تعد تفهمُني بقلبك .

- أنا أفهمك ياصغيرتي .

- بعقلك يا أبي .. العقول عاجزة عن إدراك أسرار القلوب ! لا يُدرك القلبَ إلّا القلبُ يا أبي ..

- وهل أدركتِ أنتِ سرّ صديقتِك الراعية ؟

- لم أحتج إلى أيّ جهد .. جلست عند قدميها ..

- عند قدَمي راعية ؟

- ومسحتُ بشفتيّ دُموعها .

- ماذا تقولين ..؟

- وانتزعتُ شرائطَ شعري وقدّمتُها لها .. أخَذَتْها منّي باهتمام .. وفرح ..

- قلتِ إنّها كانت تبكي ؟

- أفرحها الخير .. وأوقف دموعها .. وعادت إلى عينيها

نشوة السعادة ..

– وبمثل هذه السرعة ؟.

– ألم أُخبرك بفعل الحبّ .. وبأثره الساحر في القلوب المحبّة ؟

– وشرائطُ شعرك لِمَ أخذتها ..

– كانت النعجة الجريح في حُضنها ..

– أهذا ما أقلقها .. وما أبكاها ؟

– والدم يسيل من جرحها ..

– وهل في هذا ما يُقلق ويُبكي ؟

– وفي العناق الرائع .. كان لسان النعجة يداعب خدَّ الراعية .. وسيلة الشكر الوحيدة .. وربطت جرحها بشرائطي البيضاء النظيفة ..

– ألم تلحس خدَّك شاكرة ؟.

– أنت تسخر يا أبي .

– أبداً .. ليتك أخذتِها إلى طبيب .. ليتك أتيت بها إلى المنزل ففى سريرك دفء .. وراحة ..

– في بيت الراعية أكثرُ ممّا في بيتي .. في بيتها الفقير البارد أكثر من الدفء .. وأكثر من الراحة ..

– ماذا ؟

– في بيتها الحبّ .. به تدفأ وبه ترتاح .. وبه تشفى نعجتها الجريح ..

ـ ألا تجدين الحُبَّ بيننا يا عزيزتي ؟

ـ ولكنَّ الحبّ لا يُبغض يا أبي !

ـ ومن أبغضتُ يا صغيرتي ؟.

ـ أنت لم تتأثَّر لما حلّ بالنعجة ..

ـ وماذا حلّ بها ؟

ـ ولمْ تشارك الراعية الحلوة مشاعرها ..

ـ مشاعر ساذجة .. لا قيمة لها ..

ـ ماذا حلّ بك يا أبي ؟. أتقول بعد إنَّك تحبّني ؟.

ـ وأيّة صلة بين هذا وذاك يا صغيرتي ؟.

ـ ألحبّ واحد لا يتجزّأ .. الحبّ لا يكون أنانياً يا أبي .

ـ لقد غدوتِ فيلسوفة يا صغيرتي !!

ـ ومن يحبّ ابنته لا يحتقر مشاعر الناس يا أبي .. والراعي لا يكون صالحاً إلّا إذا شمل عطفه جميع الناس ..

ـ لستُ راعياً يا حبيبتي ..

ـ بلى يا أبي .. أنت مسؤول عنّـــا .. أليس كذلك ؟ كلّ مسؤول راعٍ ..

ـ أنتِ تُحيّرينني يا بُنيّتي ..

ـ ألحيرة لا تدخل قلوب المحبّين يا أبي .

ـ أنا أُحبّك يا حبيبتي ..

– أنت تحبّ نفسك فيّ .. هذا ما قالته لي أمسِ صديقتي الراعية ..

– يا لها من مضلِّلَة ..

– أنت تظلمها يا أبي .. الحبّ الحقيقيّ لا يظلم .. الحبّ عدالة ..

– أوه .. كم تثيرين أعصابي يا ..

– ليتك تُحبّ .. عندما تحبّ لا تثور .. الراعي الصالح لا يثور ليظلم .. يثور لينشر المحبّة خيراً ..

– أتريدينني أهدأ ؟.

– أنت تريد لنفسك يا أبي .. وما لا تريده أنت لا نفع منه ..

– ها أنا قد هدأت ..

– ولكنّك لا تبتسم ..

– ها أنا .. أبتسم ..

– ولم تَزُلْ تجاعيد وجهك بعد ..

– آه .. والآن ؟ .

– بقي أن تعرف إن كنت تحبّ ..

– أحبّ من ؟.

– صديقتي الراعية !

– آه .. أ .. أجل .. أُحبّها ..

– ونعجتها الجريح ..

– آه .. أجل .. أجل ..

– إذاً انت كصديقتي الراعية .

– أنا ؟!

– نعم . مُحبّ مثلها .. وراعٍ صالح كما هي راعية صالحة ..

– والآنَ ، أتحبّينني يا صغيرتي ..؟

– لم أتنازل عن حبّك لحظة واحدة يا أبي .. الحبّ لا يتجزّأ..
الم أقلْ لك ذلك يا أبي ؟

– أجل ، أجل يا حبيبتي ..

الرّاعِيَــة الصَّغــيرة

– أتعودين الآنَ يا صغيرتي .. وَلِوحدك .. اين رفقاؤك ؟ ألم يبقَ أحد منهم معك ؟

– سبقوني إلى العودة يا أبي .

– واجتزت طريق الغابة بمفردك ؟ أما دبّ الخوف إلى قلبك يا عزيزتي ؟. كان عليك أن لا تتأخّري !!

– أجل يا أبي .. لو كنت وحيدة كما ظننت ..

– ألم تقولي إنّ رفقاءك سبقوك إلى العودة ؟

– لم أعد مع رفقائي .. كانت صديقتي الراعية هي رفيقة الطريق الوعر الشاقّ .

– إذاً كنت واحدة في القطيـع ..

– أليس أفضلَ من ان أكون نعجة ضالـّة ؟. وجدت فرحة كبيرة في أن تجمعني اللـّقيا مع صديقتي الراعية وقطيعها ، وشاقني الحديث الأنيس كما أفادني ..

– ولكنّك قلت إنّها راعية .. وراعية صغيرة .. وفتاة بسيطة ساذجة تسوق قطيعها في الصباح ، وتعود بــه في المساء ، منهكة متعَبة ، فكيف تُفيدين من حديث أمثالها ؟.

– لم تعد منهكة متعبة ولا مرّة واحدة .. إنّها دائمة البِشر والغبطة .. هي تُحبّ خرافهـا ، والذي يُحبّ لا يتعب يا أبي .

– ماذا ؟ وأيّ شيء تعرفين عن الحبّ ؟ ومِنْ أين لك في مثل عمرك أن تتحدّثي عن ذلك ؟؟

– ولِمَ دهشتك ؟. وأيّ غريب في كلامي ؟ أنا أُحبّك .. وأنت تحبّني .. أليس هـذا صحيحاً ؟. ألم تقل لي دائماً : أنا أُحبّك يا عزيزتي ؟. وهي .. حدّثتني عن الحبّ .. حبّهـا صغارَها ، كما تتحدّث أنت عن حبّك صغارك ..

– وأيّ صغار تعنين ؟.

– إنّ قطيعها بالنسبة لها هو عائلتها التي فيها ولها تعيش .. هو عالمها المسحور .. ونعاجهـا أولادها الصغار .. بعنايتها ينمون ويكبرون أكثر مما ينمون بالطعام والشراب ؛ هي التي قالت لي ذلك ..

– يا لها من فتاة غريبة .. وماذا حدّثتك أيضاً ؟

– سألتني عن قطيعي ..

– قطيعك ؟

– أجل .. أرادت أن تعرف أين أذهب .. وماذا أعمل .. وكيف أمضي ساعات النهار .

– وماذا قلت لها ؟ أعرفت أن لكِ من اللعب ما يفوق قطيعها عدداً ؟.

– ذكرت لها ذلك .. أخبرتها بما لديّ من بنات صغار وكبار ، أحيا معهن وينمن إلى جانبي .. ولكنني خجلت يا أبي.

– وممّ خجلت يا صغيرتي ؟

– خجلت عندما عرفت أنّ عالمي من جماد .. وأنّ بناتي لا تكبر ولا تنمو .. فقد سألتني : « وهل يكبر صغارك أو ينمون؟» .. وضحكت لتزيد : « إذاً أنت لا تُعطين لمن يأخذ ، وأنت لا تأخذين ممّن يُعطي .. فكيف تعيشين في وهم ، وتعيشين لِدُمى جامدة ؟! »

– ألم تقولي لها إنّكِ ما زلت صغيرة ؟.

– وهي صغيرة مثلي يا أبي .. إنّها لا تكبرني كثيراً ..

– يا لها من مُضَلِّلة .. صغيرة جاهلة .. من أفسد طفولتها ، مَن حوّلها إلى عنصر ضارّ ؟.

– إنّها لا تضرّ أحداً .. إنّها تنفع .. إنّها تعطي .. ليتك رأيت قطيعها ، فالحياة والعافية تدبّان فيه ..

– ألم تحاول إفساد عالمك الصغير ؟

– أبداً يا أبي !. إنّها لم تفهم سرّ السعادة في عالمي .

– ألم تقولي إنّها صغيرة مثلك ؟.

– إنّها تُعطي ولا تأخذ يا أبي .. لم تعرف دفء العائلة ..

وحنان الأهل .. لم تأنس بالطفولة الهانئة البعيدة عن المسؤوليّة !

ـ ماذا تقولين ؟. أأنت تفهمين هذا كلـه ؟

ـ سألتُها من قبل : « ألا تذهبـين إلى المدرسة يا صديقتي ؟ » فلم تفهم ما أقول ..

ـ تعنين أنـّها لم تدخل المدرسة حتى الآن ؟

ـ أجل يا أبي .. أخبرتهـــا أنّ المدرسة هي عالمي الثاني بعد البيت .. وأصغتْ إليّ .. وطالبتني بالمزيد .. لذّها أن تسمع بعالم آخر غير عـــالم قطيعها .. وفرحت .. بل صفـّقت طرباً وأنا أُخبرها عن دروس الصغار ولـُعَـبـِهم .. وقالت لي : ليتني أجد من يهتمّ بي ؟!

ـ لقد شعرَتْ أخيراً بشقاء عالمها .

ـ ليس هذا تماماً ..

ـ إذاً أحسّت صديقتك الراعية أنّ عالمك أفضل من عالمها ..

ـ لمحتُ مرارةً تجول في عينيها .. بدأت ألحظ منـــذ ذلك الحين أنّ غِشاء من حزن يُغلـّف أيّامهـــا. ولـَحَظْـتُ شيئاً آخر ..

ـ ما هو يا صغيرتي ؟. أرى أنـّك تلاحظين أشياء كثيرة !

ـ كانت صديقتي الراعية أكثرَ مرحـــاً في عالمها .. وكانت مشغولة بسعادتها عن الفـــارق البعيد بين مظهري ومظهرها .. بين ما ألبس وما تلبس ..

ـ هل كانت فقيرةَ المظهر ؟

– ثوب مرقّع ممزّق .. الثوب الوحيد الذي لمحته عليها منذ معرفتي بها .. ولكنّها لم تكن تلقي نظرة واحـــدة إلى ثيابي التي أجدّدها كلّ يوم .. ولم يكن يُخجلها أن أتأمّل قدميها الحافيتـين المشقّـقتين ..

– وهل كانت قدماها حافيتين ؟

– أجل ..

– وهل بدّلَتْ من نظرتها إلى ثيابها وإلى قدميها ؟

– لم أعد أشعر بحرارة استقبالها لي ..

– أتعنين أنـّها ملـّت صداقتك ؟.

– بدأت أشعر أنـّها تنبّهت على واقعها .. بدأت ترى فيّ الفارق الاجتماعيّ الذي يُبرز مأساتها ..

– أوَ تظنـّين أنـّها أخذت تـُبغض عالمها ؟.

– ربّما ... فهي لم تعد مؤخّراً تهتمُّ بقطيعها كما كانت من قبل .

– وهي إذ تعـود ، تعود متثاقلة متعبـة .. فالذي لا يحبّ يتعب .. أليس كذلك يا بُنيّتي ؟

– كان ذلك قبلَ نزهة اليومِ يا أبي ..

– وماذا حدث من جديد اليومَ يا عزيزتي ؟.

– أريدكَ أن تعترف بحقيقة قبلَ أن تسمع الجواب ..

– أيّة حقيقة يا عزيزتي ..؟

ـ أن تقول من أفسد عالم الأخرى ! هل الراعية هي التي أفسدت عالمي ؟ أم أنا التي أفسدتُ عالم الراعية المسكينة ؟

ـ ماذا ؟

ـ أجل ، أريد أن أعرف من ضلَّلَ الأخرى ، أهي التي ضلّلتني أم أنا التي ضلّلتها ؟.

ـ ولكنّك لم تتعمّدي إفساد عالمها أو تضليل نفسها .

ـ ولكنّ عالمها أُفسد ونفسها ضُلّلت..

ـ وأيّة مسؤوليّة عليك في ذلك يا بُنيّتي ؟.

ـ ولماذا لا تقول أيّة مسؤوليّة علينا ؟

ـ علينا ؟ ماذا تعنين ؟

ـ ومن هو المسؤول عن هذا الظلم الاجتماعيّ ؟. الكبار أم الصغار يا أبي ؟ ..

ـ وتفهمين هذا أيضاً يا صغيرتي ؟.

ـ أمن الصعب أن أُقابل بين حياة هذه الراعية وحياتي ؟. أيعجز عقلي الصغير عن أن يتساءل لماذا يعمل الصغار ولا يتعلّمون ؟ أو لماذا أتعلّم أنا ولا تتعلّم صديقتي الراعية ؟

ـ كفى يا حبيبتي ، كفى ..

ـ ولماذا ألبس الثياب الأنيقة وهي تلبس الرقع المهترئة ؟

ـ خفّفي عنكِ يا صغيرتي ..

– ولماذا هي حافية مشقّقة القدمين ؟

– لم أقصد إثارتك يا عزيزتي .. وإنما أُريد منك شيئاً وحيداً ..

– ما هو يا أبتاه ؟.

– أريد أن أعرف لماذا عادت صديقتك اليوم زاهية فرحة ؟

– لأنني كذبت عليها يا أبي !

– أنت تكذبين ؟.

– أليوم فقط كذبت .. أردت إسعادها بكذبة .. خانني الواقع فالتجأت إلى الخيال .. أتلومني على ذلك يا أبي ؟

– وماذا قلت لها ؟

– عرفت أنّها يتيمة لا أب لها ولا أمّ .. وأنّها أجيرة ..

– هذه الصغيرة أجيرة ؟

– ببقايا ثوب أجيرة .. وبلُقَمٍ يابسة بخيلة ..

– وماذا بعد ؟

– لقد وعدتُها بثوب جديد ..

– حسناً .. حسناً يا صغيرتي ..

– وبحِذاء ..

– خيراً فعلت ..

– ووعدتُها بمأوى .. ببيت وعائلة ..

– كم أنت رائعة يا حبيبتي !.

– ووعدتها بمدرسة ..

– يا لك من إنسانة كبيرة !.

– وعدتُهـــا أن تصبـح مثلي يا أبي .. أرأيتَ كم كذبتي كبيرة ؟.

– أنتِ لم تكذبي أبداً يا إنسانتي الغالية ..

– ماذا تقول يا أبي ؟

– بعد اليوم لن تفترق صديقتك عنك يا حبيبتي ..

– أحقّاً هذا يا أبتاه ؟!

– ولن يفوتها البيت الدافىء ..

– كم أنت عظيم يا أبي !

– ولا المدرسة ..

– آه .. كم أحبّك .. كم أنا فخورة بك ؟!

– ولا الأب ولا الأمّ يا بُنيّتي .. ستكون مثلك تمامــاً .. ستكون أختاً لك ، وابنة لنا .

آه .. إنّك تبكي يا أبي !

– هي دموع الفرح يا حبيبتي ..

– دعني أُقبّلك ، وألم بشفتيّ دموع إنسانيّتك يا أبي .

الحياة محبّة

– أين أنت يا صغيرتي ؟ ألا تسمعينني ؟. منـــذ ربع ساعة وأنا أُناديك .. أين أنت يا حلوتي ؟. تعبت أُلاحقك بين الصخور .. في المسالك الوعرة .. أدور وأدور .. صغيرتي الغاليـــة ، تضيعين في الغابة ولا أجدك ؟ في رأسي دُوار .. وفي نفسي قلق الخـائفين .. أتهبط الظلمة ولا أهتدي إليك ؟. صغيرتي .. صغيرتي .. أين ألقـاك يا حبيبتي ؟ وأنت أيّتهـا الراعية الملعونة ، أين تكونين ؟ أفسدت على صغيرتي سعادتها .. ومذ عرفتْك تترك البيت إلى الغابة ولا تعود ، إلّا إذا سعينا إليها .. أيّتها الراعية أين أجدك؟

– سيّدي .. سيّدي .. سمعتك من بعيد يا سيّدي ، فهـل أنت تريدني ؟

– من .. أنتِ ؟ أتسمعينني ولا تسمعني ابنتي ..؟ أجل .. لا ! أنا لا أُريدك ، أُريد ابنتي . أين مضيتِ بها ؟.

– ماذا ؟. ابنتك ؟. أنت تطلب صديقتي الجميلة ..

– أجل ، أطلبها .. أين هي أيّتها الفتاة القاسية ؟.

– لستُ قاسية يا سيّدي.. أنا هاربة إلى الغابة من القسوة ..قسوة الناس أمثالك يا .. سيّدي ..

– أتهينينني أيضاً ؟. أقول لك أريد ابنتي ..

– أرجوك يا سيّدي .. أترك يـدي .. أصابعك أقسى من العِصيّ .. أشدّ ضغطاً من قضيب الرعاة .. آه .. أراك تحطّم يدي .. ألا تحسّ بيدك تقسو أيّها الأب ؟

– يدي ؟.. يدك تتحطّم.. عفوَك أيّتها الصغيرة !.

– أعادت إليك يا سيّدي عاطفة الأب الباحث عن ابنتـه ؟ أنت في الواقع الطبيعيّ الآن .. العاطفة واحـدة .. لا يمكن لك أن تكون حنوناً عاطفيّاً مع ابنتك ، قاسياً عنيفاً معي ، أنا الفتاة المستضعَفة ..

– أعتذر إليك مرّة ثانية أيّتها .. يا صغيرتي .. إنما رجوتك أن تُرشديني إلى حيث أجدها ..

– ليكن لك ما تريد أيّها الأب ..

– إذاً أنت تعرفين مكانها .. بالله عليك هل هي بخير ؟

– إنّها سالمة معافاة .. سقطت بين يديّ..

– ماذا تقولين ؟! سقطت ؟!

– وكدتُ أفديها بنفسي .. لو لم ننجُ معاً بأعجوبة ..

– وأين هي الآن ؟. بربّك خذيني إليها ..

– لا تُرَعْ أيّها الأب .. ولا تُروّع ابنتك .. إنّها نائمـة ..

هي كملاك تغفو .. وقيتها من الحرّ .. ومن رطوبة المُنـاخ .. ومن الحشرات السارحة ..

– أين ابنتي أيّتها الفتاة ؟. أريد أن ترشديني إليها الآن .. سئمت هذه الثرثرة غير المسؤولة ..

– وهل توقظها من النوم أيّتها الوالد ؟

– هي ابنتي قبل كلّ شيء أيّتها الصغيرة .. لست بحاجة إلى من يوقظ فيّ العاطفة ..

– ولكنّها صديقتي .. رفيقة أحلامي في هـذه الغابة .. دخلت عالمي فآنسته .. وأصبحت شريكتي في مملكتي السعيدة ..

– هات يدك أيّتها الصغيرة .. واسلكي بي الطريق إلى ابنتي ..

– آه .. أعدت إليّ القسوة أيّهـا السيّد .. أنت تضغط بشدّة على ذراعي .. لم أكن كذلك مع ابنتك .. وهـل تعامل ابنتك بمثل هـذه الرجولة الظالمة ؟. ربما .. ولعلّهـا لذلك تهرب إليّ لتحتمي بي .. لتجد في عالمي من العطف والحنان ما لم تجـده في عالمك ..

– أنت وقحة أيّتها الراعية ..

– أفضّل الوقاحة على الظلم يا سيّدي .. ومن يحمي المظلومين إذا لم يتجرّأوا ؟ ولك أن تُسمّي الجرأة كما تشاء ..

– أأنت العاجزة تتجرّئين عليّ ؟..

– أتجرّأ في العـدل يا سيّدي .. ومتى كان العدل عجزاً ؟.

ألأقوياء وحـــدهم هم الذين يعدلون .. الضعفــاء الخائفون يحاولون بالقسوة الظالمة تغطية نفسيّاتهم المنهارة ..

– ماذا تقولين ؟

– أنا لم أظلمك يا سيّدي .. آه ..ما تزال أصابعك تضغط على عروقي ..

– ماذا ؟ أصابعي أنا ، تضغط ؟.

– أراك نسيت .. كثيراً ما ينسى الظالمون أنّهـــم يظلمون.. يحملهم الغضب أو جنون العاطفـــة إلى التمادي في الدوار المحموم .. والمحمومون لا يقدرون .. والجنون غيبوبـــة .. ولا يعيدهم إلى الحقيقة ، إلى ما يرتكبون ، إلّا حُمّى أشدّ وجنون أقوى ..

– يا لكِ من ثرثارة .. وبعد .. أأنت تتجاهلـــين إرادتي ؟. أكاد أجنّ .. ماذا أفعل بك ؟. أُريد ابنتي أيّتها المجرمة ..

– تفعل بي ما تشاء .. حطّم يـــدي .. هيّا .. طوّق بأصابعك خناقي .. أقتلني .. إرمِ بي إلى الهاوية .. لن أخافـــك أيّها الرجل ..

– إذاً أنت تريدينني أرضى أن تقتلي ابنـــتي .. أن تخفيها .. أن تغيّبي حياتها عن حياتي .. وأن لا .. أثور ..

– أراك ما زلت تنسى .. ألم أقل لـك إني كدت أفدي بحياتي حياة ابنتك ؟.

– بلى قلت !

– ومن الحرّ حميتُها .. ومن الحشرات السارحة .. وغنّيت لها حتى هدأ روعها وغفت .. ولهذا أريد أن لا أُروّعها من جديد ..

– ماذا ؟ أتظنّين وجودي يروّعها ؟! قوديني إليها وسترين بأيّة لهفة وبأيّ شوق تستقبلني ..

– ستسعى إليها .. مُحال أمنع أباً عن ابنته .. أنا لا أُقدّر مشاعر الآباء ، فما لقيت مثل تلك المشاعر .. حُرِمتُها .. ولا أزال .. إنما أُقدّر عاطفة الأبناء .. أُقدّر شوقي إلى حضن أب ألتجىء إليه .. وأجد فيه الدفء والعافية ..

– ومع من تعيشين إذاً ؟.
– مع قطيعي الحبيب .. ولكن ..
– ماذا أيّتها الصغيرة؟.

– إنتبه أيّها الأب .. إتبع خطواتي .. المزالق هنا كثيرة .. والسير فوق المنحدرات خطر ..

– شكراً لك أيّتها الإنسانة الصغيرة .. شكراً لك .. أشعر بفضلك يغمرني..

– وأيّ فضل للمسود على السيّد يا سيّدي ؟.
– ألشكر زاد النفوس الطيّبة .. ولا سيّد ولا مسود أيّتها الفتاة ..

– سيّدي .. سيّدي .. إنتبه ..

– ماذا ؟

– إتّجه نحو اليمين .. بحذر تحرّك .. إيّاك أن تخـــاف .. أو تركض .. أو تحاول أن تقسو .. أبـــداً .. إلتفت إليّ ، وانتقل .. أجل .. أجل .. هكذا .. ولا تتكلّم !!

– ماذا حدث أيّتها الفتاة ؟.

– تعال .. إقترب منّي .. إرتفـــع إلى جانبي فوق هذه الصخرة .. أوه، أجل.. هنا .. حسناً .. تنفّس الآن بملء رئتيك.. وانظر في اتجاه الشمال .. إنّها ما برحت هناك ..

– ماذا ؟ أفعى ؟!

– أجل ، ومن النوع الخبيث ..

– يا لك من فتاة لا تثمّن .. كنتُ هناك .. تماماً قربها .. لقـد أنقذت حياتي أيّتها الطيّبة .. ومن قبـل أنقذتِ حيـاة ابنتي ..

– وقد أنقذتُ حياتي عندمـا أنقذتكما .. ألسنا في الإنسانيّـة إخوة ؟. أليست جراحنا واحدة ؟. ألا يقبل واحدنا أن يتقاسم مـع أخيه جراحه ؟.

– ولكنّ الإنسان ظالم يا صغيرتي .. الإنسان القويّ .

– ولِمَ أيّتها الأب ؟

– لأنـه يرضى أن يقاسمه الناس أحزانه ..

– وماذا في ذلك ؟

– ولا يرضى أن يقاسم الناسَ أحزانَهم .. ولا يرضى أن يقاسمه الناسُ بعضَ أفراحه !

– ولِمَ لا ؟. أتشكّين في إنسانيّتي ؟. أتجدين من الصعب على واحد مثلي أن يكون عطوفاً وعادلاً .. وإنسانيّاً ؟.

– ما عنيت ذلك يا سيّدي ..

– من حقّك أن تشكّي .. ألم تَلقَيْ منّي احتقاراً وقسوة ؟ ألم تطغ أنانيّتي عليّ وأنا أُفكّر بصيبيتي ولا أُفكّر بصيبتك ، وأنا أُحسّ بمشكلة ابنتي ولا أُحسّ بمشكلتك ؟!

– ولكنّ ذلك لم يضايقني .. صدّقني يا سيّدي أنّني فقدت الشعور بعذاب النفس مذ فهمت حقيقة الناس .. أي مذ أدركت أنّ قلوبهم خالية من المحبّة .. من الخير المحرّر .. يعذّبك إذا كان جلّادك ذا قلب .. إنما متى كان بلا قلب ، فمعنى ذلك أنّه مجرّد من الوسائل التي بها يحبّ .. ومن لا يحبّ لا يحرّر ، لأنّه هو نفسه لا يكون حرّاً ..

– أنتِ فيلسوفة يا صغيرتي .. ولكنْ لي عندك رجاء..

– عفوك سيّدي، وهل ..

– لا حاجة للمجاملة .. أبداً .. أُريد جواباً وحسب .. أترضين أيّتها الإنسانة الصغيرة أن تكوني ابنتي ؟.

– من ؟ أنا ؟ ابنتك .. محال يا سيّدي.. لحظة ونصل إلى ابنتك.. حفظ الله لك ابنتك يا سيّدي ..

– ستكونان اثنتين .. أُحسّ برغبة شديدة في أن أُكفّر عن أخطائي معك يا صغيرتي . أُريدك ابنة ثانية لي .. أُختاً حقيقيّة لابنتي ..

– لعلّك تريدني أيّها الأب العطوف رفيقة تسليةٍ لصغيرتك ..

– أبداً .. أُقسم لك .. أُريدك ..

– وعندما تكبر ابنتك .. أيظلّ شعور الصغار في ذاتها التي كبرت ؟. ألن تدرك آنذاك الفرق بيننا ؟. ألن تحسّ بانخفاض عالمي الذي لم يعدّه أب .. ولم تعدّه عائلة .. ولم يرفع من أعمدته جاه أو مال ؟!

– أنت تعقّدين الأمور .. أنت تبالغين في فهم الأشياء .. ما ظننت صغيرة مثلك هكذا معقّدة ..

– لست كما تظنّ يا سيّدي .. حياتي كهذه الطبيعة الساذجة .. البسيطة الجميلة.. ومتى كان الجمال معقّداً ؟.

– أُعدّ لك الدفء والراحة .. والأحضان السعيدة ..

– ولكنّك لا تُعدّ لي الحريّة أيّها الوالد .. دعني حرّة في عالمي، مع السذاجة والبساطة .. ومع أشياء الجمال من حواليّ .

– ولكن لا قيمة للحرّية بلا وطن أيّتها الصغيرة ..

– ألطبيعة وطني السعيد ..

– ولا قيمة للحرّية بلا عائلة ..

– وعائلتي قطيعي الذي يتغذّى بعنايتي .. وأفواج الطيور التي تواكبني جوقة إثر جوقة ..

– أراك توقّفت أيّتها الصغيرة ..

– ألا تريد أن تشاهد صغيرتك أيُّها الأب الملهوف ؟

– أوه .. بلى .. نسيت !

– ماذا نسيت ؟ ابنتك ؟.

– كدت تنسينني إيّاها .. فهل وصلنا إلى مكانها ؟.

– أتأخذ مكاني أيّتها السيّد ؟. نعم .. هنا .. تماماً .. ضع قدمك ثابتة مخافة الانزلاق ..

– إنزلاقُ النفس أخطر من انزلاق القدم أيّتها الفتاة..

– لقد أصبحت فيلسوفاً أيُّها الأب ..

– أنت على حقّ أيّتها الصغيرة .. لا يفهم الحيـاة إلّا من يحبّ ..

– عفوك سيّدي .. لقد طال الحديث .. وقطيعي ينتظر .. هذه هي فتاتك تغفو .. ورجائي إليك أن تنتظرها حتى تستيقظ .. حرام أن تروّع الطائر في عشّه .. أو أن تُفتّق بيديك البرعم قبل أن تفتح الحياة أوراقه ببِدَعَةٍ وعفويّة وبساطة ..

– إلى أين .. أيّتها الصغيرة .. إلى أين ؟

– إلى حرّيتي أيّتها الأب .. حيث لا خوف .. ولا ألم .. ولا قسوة جائرة ..

حِكايـَـة السَّحَابة

– قيل للسحابة حكاية يا أبي .. فما تكون ؟..

– ومتى عرفت معنى السحابة يا حبيبتي لتتحدّثي عن حكايتها ؟

– رأيتها في كتاب المطالعـــة الذي أحضرتَه لي .. وكانت ليلى الصغيرة تنام عليها .

– وهل رأيت أحداً قبل ليلى تنام على الغيوم يا حبيبتي ؟

– لم تكن ليلى فوق الغيوم .. يا أبي !

– ولكنّك أنت قلت ذلك ..

– هي صورة في كتاب .. ألا تُفرّق بين الخيـــال والحقيقة يا أبي ؟

– إذاً أنت تفرّقـين .. يا للأمر العجيب !. حسن .. ولكن ليتك تعرفين الحقيقة كاملة يا صغيرتي ..

– وما الذي يفوتني يا ترى ؟

– أنت لا تشاهدين الناس بعينيك يعيشون في الغيوم أو فوقها، إنما هم يعيشون ..

– كيف يعيشون ولا أراهم ؟ بيتنا على قمّة يا أبي .. وبيننا وبين السحب أمتار . أنظر إلى تلك الغيمة التي تنحدر حتى قمّة الجبل المجاور .. أترى أحداً فوقها ؟.

– أبداً .. أنا لا أرى أحداً ..

– وانظر إلى أخواتٍ لها هنا وهناك ..

– ها أنا أنظر ..

– ألغيوم وهي تتجمّع .. ربّما تخفي ما تعني .. ولكنّها لا تبرح حتى تتفرّق .. تتبدّد وتنتشر حتى لتُتريك السماء خلال غِلالة شفّافة .. فمن قال لك إنّه رأى إنساناً يتزلّج على غيمة ؟ أو يتهادى فوق غَمامة ؟ أو يركب أُرجوحة من سَحاب ؟..

– تتمادَيْنَ يا حبيبتي.. فمن علّم الصغيرة الحييّة هذرَ الساخرين الشامتين ؟

– عفوك يا أبي .. أأنا بك ساخرة شامتة ؟ أهكذا تفسّر الدعابة التي تمرّس ذهنُنا بها على يديك ؟

– ألهك ترتجفين يا صغيرتي . هل دبّ البرد إلى جاراتك السحب فدبّ إليك ؟.

– أرتجف ؟ أنا ؟. ولمَ يترامى البرد إليّ إذا ترامى إلى السحب ؟

– لقد عُدت من رحلتك في الغيوم يا صغيرتي .. أنت

ترتجفين ، إذاً أنت في الحقيقة ولا عجب تبردين .. ألم تهبط ليلى من عالمها فوق تلك الغيمة عندما هبّت ريح لافحة باردة ؟. أليس هذا ما حمله كتابك الصغير ؟

ـ وأنا ، ألم أقل لك إنّ ذلك خيال لا حقيقة يا أبي ؟

ـ ولكنّك ترتجفين يا حبيبتي ..

ـ ألا يرتعش الجسد وهو على الأرض يا أبي ؟

ـ ومتى ارتجفت طفلتنا العزيزة ؟ ألبرد لا يدبّ إلى الأحضان الدافئة يا حبيبتي . ألحقيقة تُدفىء وتدفع الحياة إلى العروق الباردة .. لهب الحقيقة يتصاعد لينعقد في السماء سُحُباً خصيبة ..

ـ سُحُباً باردة .. أليس كذلك يا أبي ؟.

ـ سُحُباً دافئة يا حبيبتي .. وعندما تبرد لا تظلّ سُحُباً .. تتحوّل إلى قطرات ماء تُدبّ العافية في العروق اليابسة والشرايين التي جفت فيها الحياة .

ـ هذا ما يقوله كتاب الصغار ..

ـ تريدين أن تقولي : كتاب الذين سيصبحون كباراً ..

ـ وما هو الفرق يا أبي ؟

ـ قيمة الكتب ، ياصغيرتي ، أن تمشي بالعمر وتتّحد به ، وتنتقل إلى النفس فتنمّيها ، وتزرع البذور ، وتتعهّد الغرسات النامية ..

ـ قرأت أمس يا أبي كتاب الدجاجة السوداء .. فضحكت ..

ألكتب تسلّي يا أبي ..

– وقرأنا معاً كتاب « سلوى في المنزل » ، فهل تسلّيت يا حبيبتي؟

– أعجبتني سلوى يا أبي .. هي مدهشة في البيت وفي المدرسة وفي سلوكها مع الآخرين .. يا لها من فتاة .. تحبّ الصغار وتحترم الكبار ..

– هل أحببت أنْ تكوني كسلوى يا عزيزتي ؟.

– ألست مثلها ؟.. أوه .. لن أبالغ .. ولن أكون مغرورة .. سلوى فتاة نادرة .. سأحاول أن أكون مثلها .. أيعجبك هذا يا أبي ؟

– أرأيت يا حبيبتي إلى البذور التي تُزرع ، والغرسات التي تنمو ؟.

– لكنّك قلت إنّ السحب يا أبي هي التي تُحيي وتُنمي .. وجاء في كتابي الصغير : « تنفّست البراعم عندما انسكب المطر عليها .. وامتدّت قامات السنابل .. وفرحت الأرنب .. ومشى الفلّاح إلى أرضه واثقاً بالخصب والجنى » .

– الحرف والمطر كلاهما غيث يا عزيزتي .. كلاهما نجدة وعون .. ذاك ينسكب من صفحة الكتاب وهذا من صفحة السماء . الحروف تصيب النفوس والعقول ، والمطر ، بدونه ينشر الخصب والعافية ، لا تحيا نفوس ولا تتألّق عقول .. وكلاهما مثيل للآخر بالسكب والسخاء .

– حدّثتني منذ قليل عمّن يعيش في السحاب يا أبي . فما هو

الفرق بين من يعيش في السحاب ومن يعيش به ؟

ـ أتقدّرين كم أُحبّكنَّ : أخواتك وأنت يا حبيبتي ؟

ـ حبّك لنا لا يقدّر.

ـ أيبعدني عنكنَّ شيء ؟

ـ أبداً .. ولكن .. لا .. لا .. لا شيء ..

ـ أنت تريدين أن تقولي شيئاً .. أُريـــدك صريحة يا عزيزتي تقولين ما تعتقدين ..

ـ لن أُخفي خاطراً مرّ في بالي .. تذكّرت أنّنا لا نراك إلّا نادراً يا أبي.. وإذا جئت البيت قبل أن ننام هربت من حيويّتنا.. وتواريت وراء باب غرفتك .

ـ أتعرفين السبب يا صغيرتي ؟

ـ تساءلت عنه مراراً .. حاولت أُمّي أن تشرحـه لي .. صعُب عليّ أن أُدركه ..

ـ أنا أقوله لك بوضوح .. وسيكون واضحـــاً لأنّني ببساطة سأقوله .. ببساطة سؤالك .. ونظراتك .. وجـــولان الخواطر في بالك يا صغيرتي . ألسبب هو أنّني لا أُريد أن أعيش بين الغيوم يا حبيبتي ..

ـ أيعني ذلك أنّك تخاف أنْ تلفحك الريح الباردة هناك ؟

ـ أبداً .. وإنما أُفضّل دفء الحقيقة يا حبيبتي .. دفء الواقع ..

– تعني دفء الأحضان السعيدة ..

– وأكثر من هــذا .. أُفضّل أن أكون الحقيقــة التي تـُطلق اللهبَ الحارّ سحائب تتجمّع وتنعقــد لتتساقط من بعد قطرات ماء نمير يحيي وينمي ويمدّ الظلال ، على أن أكون الإنسان الذي يتهاوى من على أجنحة الغمائم وهو يرتعش كلـّما هبـّت ريح باردة ..

– ولكنّنا نريدك أكثر قرباً منّا .. نريد مزيــداً من الدفء يا أبي .. أليس من الحقيقة أن تكون لنا كما تكون لنفسك ..؟

– وهل أكون لنفسي عندما أكون معها يا حبيبتي ؟. وهل يعيش أحد لنفسه عندما تكون غايته أبعد من حدود هذه النفس ؟.

– هل أفهم أنـّك تعيش من أجلنا ؟

– ولماذا إذاً يُواريني باب غرفتي ؟

– ومتى ستخرج من عالمك ؟.

– متى تدخلين إليه يا حبيبتي .

– أبي .. أبي .. أهذه هي حكاية السحابة يا أبي ؟

– ألم يبدأ حديثك بالسؤال عن حكايتها يا حبيبتي ؟!

أتبيع آبنتك ؟

– من تكون هذه الصغيرة التي تبكي عند مدخل بيتنا يا أبي ؟

– إنّها الراعية الصغيرة التي طالما وعدتك بأن أُحضرها لك .

– ولكنّها ليست صديقتي الراعية ، رفيقة نزهاتي في الجبل ...

– لعلّها قريبة لها ! ألا تشبهها يا صغيرتي ؟..

– ربّما يا أبي ... وإنما في ثيابها البالية ، وقدميها الحافيتين ...

– تقصدين ...

– أقصد أنّ بينهما شبهَ الفقر يا أبي ! فكما يتشابه أبنـــاء النعمة بمظاهرهم الأنيقة ، كذلك يوحّد البؤس بين البائسين ...

– إذاً هذه فُرصتُك الذهبيّة ...

– أيّة فرصة تعني ؟

– في أن تُدخلي راعيتك الصغيرة عالمك السعيد ..

– أوَتظنّ أنّها ستجدالسعادة بيننا؟ألم أقلْ لك إنّها تبكي؟..

– كثيراً ما تعقب السعادةُ البكاءَ... كما يعقب الصحوُ انسكابَ المطر ...

– ومن هو هذا الرجل الذي كان يصرخ في وجهها ؟..

– هو والدها يا بُنيّتي ...

– والدها ؟ وتخافه إلى هذا الحدّ ؟

– هذه طريقته في إقناعها ... يريدها تبقى عندنا ...

– ولِمَ يريد ذلك ؟ أيسعى إلى أن يتخلّى عن ابنته ؟

– يفعل ذلك مرغماً ...

– إذاً هو يتخلّى عنها ... ويتركها في بيت غريب ... آه يا أبي ... بدأت أفهم ... أخذت أدرك الحقيقة ... لم أكن أتصوّر أنّ أباً يبيع ابنته !

– هو لم يَبِعْها يا حبيبتي ...

– بلى ... رأيته يتناول منك قطعاً نقديّة كبيرة ...

– هي حقٌ من حقوقه ...

– وأنت يا أبي ، أتبيع ابنتك ؟.. أتسمح لأحد أن يشتريها ؟!

– مُحال يا حبيبتي ... ولو دفع مال الدنيا ...

– فلماذا تشتري أولادَ الناس ؟!

– أنا أشتري أولاد الناس ؟!! أنا أدفع أجرتها لتعمل عندنا ...

– هذه الصغيرة تعمل ؟ أليس لها مدرسة ؟ هي تكبرني بقليل !

– إنّها الحقيقة يا صغيرتي ... ألمدارس ليست لجميع الناس ...

– ألا تجد ظلماً يا أبي في أن يتعلّم بعض النـــاس ولا يتعلّم البعض الآخر ؟

– ألظلم كلّه يا بُنيّتي ...

– واستعباد الصغار ؟ أتسمح به إنسانيّة أو دين يا أبي ؟

– نحن لا نستعبد الصغار عندما يعملون عندنا ...

– ولكن لماذا يعمل الصغار ؟ أيقــدِرُ العودُ اللدْن الرخْص أن يتحمّل مشاقّ العمل وإجهادَ المسؤوليّة ؟

– عائلتها محتاجة يا صغيرتي .. والفقر كافر ...

– والحياة ؟ أهذه هي شريعتها ؟ أبداً يا أبي ... على الكبار أن يعملوا من أجل الصغار ، إلى أن يصبح هؤلاء كباراً ..

– أنت على حقّ يا عزيزتي ..

– إذاً لماذا لا يعمل أبوها بدل أن تعمل هي ، الفتاة العاجزة ؟

– في بعض المجتمعات يا إنسانتي ، يُستخدم الصغار ولا يُستخدم الكبار ...

– تعني أنّ مجال العمل موفور أكثر للصغار ...

– عندما تشتدُّ الحاجــة بالآباء يا بُنيّتي يتخلّون عن شريعــة الحياة .. يضغطون على قلوبهم ويُضحّون ..

– أأفهم من هذا أنّ أباها لا يجد عملاً ؟

ـ أجل ... والواقع مرّ كما تَرَيْن ..

ـ وما تقول لو صحّحْنا الواقع المرّ يا أبي ؟

ـ نحن نُصحِّحُ الواقع ؟ محال ! من يدّعي القدرةَ على ذلك يا صغيرتي ؟

ـ نحن قادرون على ذلك .. يجب أن يصبح حلواً .

ـ من ؟ أنت ؟

ـ لا ! أخواتي وأنا .. وأنت وماما أيضاً ..

ـ صدّقيني يا حبيبتي أنني لا أدرك ما تقولين !!

ـ لن نستخدم الصغيرة عندنا يا أبي .

ـ أهذا هو الحلّ ؟ يا لك من فتاة ذكيّة !

ـ أتسخر منّي ؟

ـ تفكيرك خطأ من ناحيتين يا حبيبتي : أوّلاً ، نحن بحاجة إلى من يتحمّل مع والدتك بعض أعباء البيت .. ومن ينتظر كنّ ليفتح لكنّ الباب عندما تعدن من المدرسة .. فأمّكُنّ تعمل ، كما تعلمون .. أليس كذلك ؟

ـ أجل يا أبي ... وبعد ؟

ـ إن لم نستخدم هذه الصغيرة عندنا ، كما تفكرين ، ستُستخدم في منزل آخر ... فالواقع ، في الحالتين ، لم يُصحّح ...

ـ أنت تتوهّم أشياء لم أقلْها يا أبي .

– بلى يا صغيرتي ... أنت التي قلت إنّ الصغيرة لن تستخـــدم عندنا ...

– عنيت غيرَ ما ظننت يا أبي .

– أأصبحتِ إلى هذا الحدّ لغزاً لا يُفسَّرُ يا حبيبتي ؟!

– ألم تحدّثني ، في البدء ، عن الفرصة السانحة ؟..

– أنا ؟ ربّما ... نسيت ...

– ألصغار لا ينسون ... وبالأخصّ عندما تـُهيّأ لهم الفرصة السانحة .

– أعُدت إلى الألغاز يا عزيزتي ؟

– لا يا أبي ... عدتُ إلى تحـــدّي الحقيقة المريرة ... سنطوي ثوب الشقاء البالي ... وسنمسح دموع الحرمان الحزين ... وعلى الشفتين الذاويتين سننشر الربيع الزاهر الدائم ...

– إذاً ...

– ستظلّ الصغيرة عندنا ... سنعمل معها جنباً إلى جنب ... ستجد فينا أخواتٍ حقيقيّات لها ... بقي دورك ودور أُمّي ...

– لن يتخلّى الكبار عن القيام بالواجب المشرّف ... ولكن متى خفّ صبايا الفرحة إلى عمل الجدّ في المنزل ؟

– وستشاركنا هي كذلك أعمالنا ...

– أوه ... واحدة بواحـدة ... ظننت إنسانيّتكنّ غـير مشروطة ...

ـ وهي كذلـك . أنت تخطىء التفسير . ستـُسهم في أعمالنا المدرسيّة ... سنتعهّد تعليمَها كلّ ما نعرف ... لقد فاتتها المدرسة فَلـْنـُفْسِحْ لها في كتبنا ودفاترنا ... فما هو رأيك الآن ؟

ـ عظيم ... رائع ... مــا كنت أحسبكـُنّ كذلك !! أنا شديد الإعجاب بإنسانيّتك يا بُنيّتي ... أيّتها الصغيرة الكبيرة ...

ـ ولكنّ المشكلة لم تُحلّ يا أبي ...

ـ أيّة مشكلة يا صغيرتي ؟

ـ مشكلة الفتاة ... مشكلة عواطفها وحاجتها إلى الحنان ...

ـ ستجده عندنا ...

ـ وهل يَحلّ شعور مكان شعور ؟.. من يعوّض حنان الأب والأمّ ؟

ـ أنت على حقّ ... نحن لن نحاول ذلك ، ولعلّنا إذ نتمادى في حناننا معها نقع في خطإ محال أن يصحّح فيما بعد .

ـ وما هو يا أبي ؟

ـ نقطع بينها وبين محيطها وبيئتها ... بينهـا وبين أهلها ... أتريدين أن تفرّقي بين الأب وابنته يا صغيرتي ؟.. أتريدين أن نشتري الفتاة مدى العمر ؟!

ـ لم أعنِ ذلك يا أبي ... لقد تفاهمنا على كلّ شيء حتى الآن ... فما هو رأيك ؟

– علينا أن لا تتعدّى صلتنا بالفتاة وعنايتنا بها بعض النواحي المحدودة .

– أنظلّ ضمن هذه الحدود إذا ما ضحكنا لها ؟

– أجل ...

– وإذا ما شاركناها في ألعابنا ؟..

– من غير شكّ ..

– وفي دروسنا ؟..

– أجل .. أجل ..

– وإذا ما تحمّلنا معها بعض مسؤوليّات العمل في المنزل ؟..

– لا بأس .. لا بأس ...

– وماذا تبقّى بعد ؟ يكفينا هـذا يا أبي .. وما عداه تتكفّل به أنت وماما ..

– يا لك من إنسانة ظريفة !..

الصِّغَار وَالحَرب

– لقد توقّفت الحرب يا أبي .

– ومتى شغلتِ الحربُ الصغار يا بُنيّتي ؟

– وسنستأنفها عندما يطلع الصباح

– لن يطلع الصباح يا حلوتي !! صباح الحروب ظلمات تنتشر فتحجب الضياء ، وتخفي الخير ، وتطوي رايات السلام .

– وماذا عن صباح المنتصرين ؟ لعلّك تعني المنهزمين يا أبي .

– ما تساوى الناس في موقف ، كما تساووا في الحروب يا بُنيّتي. ألخسارة واحدة وجسيمة تثقل المنتصر والمنهزم .

– أيّة خسارة يا أبي ؟ كلّ ما في الأمر أنّنا هزمنا رفقاءنا في معركة حامية بالمسدّسات .. لو ترى عيناك !.. توزّعنا في خطّة محكَمة بين الصخور وخلف الأشجار .. وقطعنا الأنفاس وأوقفنا كلّ حركة .. وانتظرنا العدوّ يمرّ ...وفي ساعة الصفر أطبقنا عليه.. ويا لمشهده يفرّ هارباً ، أو يستسلم منهزماً !..

– وكم كان عدد القتلى والجرحى يا بُنيّتي ؟

– كانت الحرب بين الإخوة والرفقاء يا أبي . وهل يقتل أخ أخاه والرفيق رفيقه ؟

– ألحربُ عندما تشتعل ، تأكل الأخضر واليابس ، ولا تميّز بين فرد وفرد ، ولا يردعها رادع القرابة أو المحبّة عن أن تفتك وتقسو ...

– أنت تتكلّم على حرب الكبار ، الحرب التي تُشعلها الأحقاد والمطامع ... وكبرياء الغرور الهدّام ... الحرب التي يُستخدم فيها السلاح القاتل المخرّب .

– ولكنّكِ تحدّثتِ عن المسدّسات ، سلاح المعركة ...

– مسدّسات تنفث المياه لا اللهب ، ولا تتعدّى الثياب فتبلّلها ، والوجوه فتجلو غبار المعركة عنها ... حرب الصغار لا تخيف يا أبي ، إنّها لهو ومزاح ...

– كم أودّ لو يتلهّى الصغار بغير الحروب يا حلوتي ... كثيراً ما يبدأ العنف مزاحاً ، والعراك لهواً ، وسرعان ما ينقلب إلى مأساة مروّعة .

– أنت تبالغ يا أبي . لو شهدتَ عراكنا لما توقّفت عن الضحك ... ولشاقك الكرُّ والفرّ ... وصراخٌ من هنا يتعالى ، وسقوطٌ هناك يُحدث ضجيجاً ويثير شماتة ...

– وهل تتهاوى الأبنية وتشتعل النيران ؟

ـ عمّا تتحدّث يا أبي ؟ أنت واهم تصف عالماً غير عالمنا وتتخيّل عراكاً غير عراكنا .

ـ وهل تسيل الدماء حتى تبلّ التربة ، وتتعدّد القتلى حتى تمتلىء بها الرحاب الفسيحة ؟

ـ أمرُك عجيب يا أبي ! أدرت معك حديث عالمنا السعيد لأفرحك وأُسلّيك ، فإذا بك تعقِد ما بين حاجبيك لتدير حديث النكبات والضحايا !! إبقَ معنا في عالم السلام يا أبي

ـ ولكنّك في دنيا الحروب والقتال يا بُنيّتي .

ـ أتعود إلى الجِدّ ؟ أوه ! ألا تستهويك الأحلام الصغيرة ، تنسج من الخيال ِجواءها ، وتنثر في الدروب مزاحها ، بسماتٍ ، ووروداً ، وأزاهر صحو سعيد ؟

ـ أتذكرين حادث الأمس يا حبيبتي ؟

ـ أيّ حادث يا أبي ؟

ـ عندما جاءت شقيقتك مجروحة باكية !

ـ وهل تسمّي هذا حادثاً ؟ وقعتْ في ميدان المعركة ، وأُصيبت بخدوش بسيطة .. وذهبت إلى المنزل لتجد من يُضمّدها لها .

ـ ولكنّها جاءت وحدها ...

ـ كانت في كلّ مرّةٍ تأتي وحيدةً يا أبي .

ـ لقد كانت جريحاً .

– ويا له من جرح !!

– وكانت تبكي ...

– يا لجديّة دموع الصغار !!

– أخذت نفسك تقسو يا صغيرتي ... بدأ فعـــل القتال يدبّ إلى الطفولة البريئة فيطغى على العاطفـــة ، وعلى الروح الإنسانيّة التي طالما ظهرت في تصرّفاتك . ما بكت أُختك من قبلُ إلّا بكيت معها ، ولا سمعت شاكيةً إلّا كنتِ إلى جانبها تشاركينها الشكوى وتتحمّلين وإيّاها آلامَ الأذيّة .

– أنت المسؤول عن هذا يا أبي .

– وهل تتمرّد المقاتلة الصغيرة حتى على أبيها ؟.. متى كنتُ إلّا رسول المحبّة إلى نفسك ؟

– من ينكر هذا يا أبي ؟ ولكنّك كم ثرت عليّ وأنا أشارك أختي في البكاء أو في التشكّي ... كنت تقـــول لي : اسمعي ، لا أريد صغاري إلّا أقوياء أشدّاء في المواقف التي تعترضهم . المصاعب لا تكافح بالدموع والأنين، والمشاركة لا تكون بالتشكّي والبكاء ... المشاركة يا بُنيّتي بالصمود والقوّة والصبر الجميل .

– كم يشبه صوتكِ صوت أبيك ... أتسخرين منّي أيّتها الطفلة العاقّة ؟..

– أنا أداعبك يا أبي .

– ولكنّك تشوّهين أفكاري ... لقد قلت لك أيضاً : المشاركة

تكون بالمحبّة والتعاون والتضحية ... وإهمالك أختَك عندما عادت باكية جريحاً يتناقض مع هذا كلّه ... فما هو رأيك الآن ؟!

– لم أحسب لهذا حساباً يا أبي ... وحبّي أختي لم يتغيّر ... وإنّي مستعدّة أن أفتديها بحياتي .

– أنا أصدّقك يا إنسانتي. أصدّقك لأنّك لم تصبحي بعد محاربة حقيقيّة ... وأكثر ما يخيفني أن تصبحي كذلك .

– أتسمح لي بكلمة يا أبي .. بأن أدافع عن المحاربين ؟!

– أتعود الفتاة الطيّبة إلى ميدان الدمـــاء والدموع والظلام المطبق ؟

– بنفسي أن أعود يا أبي إلى ميدان الشجاعة والتضحية والفداء . ففي المحاربين ، كما قرأت ، صفاتٌ نادرة كثيراً ما تحدّثت عنها كتب الصغار .

– يتحدّثون عن أفعال الأبطال ويتجاهلون الأَسباب التي تُحرّك نفوسهم وتوجّه أسلحتهم . لماذا يقاتل المحاربون ؟ أيعرفون لماذا يقاتلون ؟ لأيّ مبدإ وأيّ هدف ؟!

– وهل تعني أنّ ما من سبب يدفع إلى الحروب ويُشعل نيرانها ؟

– ما من سبب يا بُنيّتي يُمكن أن يُبرّر حرباً . والمكاسب مهما كانت لا يمكن لها أن تعادل الخسائر التي تنجم عن حرب .

– أتعني الخسائر المادية يا أبي ؟

– ألخسائر المادية لا تُذكر أمام الخسائر الروحية والمعنوية. إنّ خسارة أمّ ولدَها لا يُساويها أيّ مربح آخر .

– ولكنّني قرأت عن أمٍّ فرحت عندما جاءها خبر مقتل أبنها ، وتمنّت لو يُقتَل أولادُها الآخرون ...

– وقالت إنّهم شهداء المبـــدإ والرسالة ... أليس كذلك يا بُنيّتي ؟! حتى عواطف الأُمّهات يمكن أن تُضلّل ،فتقتل الأُمّ ولدها لتصبح بطلة ، كما يقتل ابنها أبناء الآخرين ليصبح كذلك بطلاً .

– ولكنّ الأُمّ لم تقتل ولدها يا أبي .

– بلى يا حبيبتي . فقد أدّى بها وهمها وعدم إدراكها دورَهـــا الإنسانيّ إلى الاعتقاد أنّ تنازلها عن عواطفها قوّة وتضحية... وكان أنْ تُوّجت بإكليل الغار ... ولكن لماذا تنازلت ، ولماذا ضحّت ، فلم يخطر لها ببال .

– أأفهم من هذا يا أبي أنّ الإنسان كان عليه ، منذ وجد ، أن لا يقاتل ، وأنّ الرسالات التي قامت بالمعـارك والثورات كان يجب أن لا تكون ؟

– أتعرفين عدد الحروب التي نشبت بين الشعوب ، منذ بدء تاريخ الشعوب يا حبيبتي ؟ إنّها لا تُعدّ . ولكن بمقدورك أن تعدّي الحروب التي أدّت إلى نشر رسالة خير ومحبّة ، وبسهولة فائقة ... إنّها قليلة جدًّا ...

– ولكنّها كانت ... وممكن أن يكون مثلها اليوم ...

– لم تبق مقاييس الماضي هي مقاييس أيّامنا . والذي كان يؤخذ بالقوّة يؤخذ اليومَ بالتحريك والتوعية والإقناع : ما يصنعه السلم لا تصنعه الحرب يا حلوتي ، وما تهدمه الحرب اليوم هو أشدّ هولاً وأشدُّ خطراً ... هو قادر على محو البشريَّة بكاملها .

– ولكنّ هذا يحتاج إلى وقت ربما يطول سنوات عديدة . وهل تنتظر الأهداف والمبادىء ، وهل يقدر رُسُلها على الانتظار ؟ ألا يتعبون ؟

– حمَلة الرسالات لا يتعبون يا حبيبتي . والانتصارات التي تُكتسب سريعاً تتلاشى سريعاً . ألمعارك لم تبقَ معارك فرد ينازل فرداً ، وحروب طاغية يريد لنفسه كلّ شيء ؛ إنّها معارك جماعات متوحّدة الهدف والمبدإ ؛ ألخير الذي تجنيه ملك لها جميعها ، ولا ميزة لواحد على الآخر إلّا ميزة المعرفة والنشاط ... معاً تنتصر ، ومعاً تبني غدها المشرق السعيد .

– وهل النتائج مؤمّنة لها يا أبي ؟

– هي بإيمانها ويقينها تعمل وتدعّم بقاءَها . وبفكرها لا بعاطفتها وحدها ترسم طريق مستقبلها ... ولا بدّ لها من الوصول مهما بعُد الزمن .

– إذاً تنقل حروبها إلى غير معترك ؟ هي تظلّ تحارب ، ولكنّ أسلحتها تختلف ... وتتنوّع !!

– ألحياة كلّها معارك لا تنتهي . ومن قيمة الإنسان فيها أن

لا ينقطع شعوره بهـــذا الجهاد المتواصل ، وإلّا انقطعت صلته بالحياة ذاتها .

– لي اعتراض عليك يا أبي .

– وما هو يا حبيبتي ؟

– أنت تريد أن تقطع صلتي بالحياة .

– معاذ الله ! ومن قال لك ذلك ؟ هذا وهم يا بُنيّتي.

– هذه حقيقة . ألم تحُل أنت بيني وبين الجهاد ؟

– أيّ جهاد ؟

– جهادي في المعارك التي كانت شبه متواصلة .

– كانت معارك قسوة وعنف . معارك دماء ودموع يا حلوتي .

– أريد جهادي لا ينقطع ... أريدني أظـــلّ أحارب بغير الدموع والدماء يا أبي ... ولكنّ العدوّ المعتدي ، كيف نردّه إذا زحف غازياً ، واحتلّ مستبدّاً ؟!

– أتعرفين حكاية المِشرط والدُمَّل يا حبيبتي ؟

– لا أظنّني أُدرك ما تعني يا أبي .

– مِشرط الجراحة في اليـــد القادرة تستأصل الدُمَّل العابث بالجسم السليم ، ليظلّ الجسمُ صحيحاً معافى .

– أأفهم أن لا بأس باستعمال القوّة عندما تكون لازمة ؟

– بل هي ضرورة كسلاح أخير ، لاستئصالِ باطلِ وإقامة حقّ .

ـ إذاً تأكّد يا أبي أنـّني حفظت حكاية الدُّمّل والمِشرط ، وسأظلّ أُلـَقّنها كلّ من أعرف ... وستكون هدايتي في الطرق المبهَمة البعيدة .

ـ عند هذا ، عودي إلى معارك الصغار ، ولا خوف عليك يا حبيبتي

المدرسة تبكي

– ألا تذهب إلى العمل أيّام الأعياد يا أبي ؟

– ولِمَ تريدينني أذهب يا صغيرتي ؟. ألا يحقّ لأبيك أن يفرح في الأيّام السعيدة .. ويرتاح ؟!

– ما عنيت هذا ، ولكنّكم تقولون دائماً : ألأعياد للصغار .. فظننت أنّ الكبار لا يُعيّدون ..

– ألأعياد للجميع يا حبيبتي ..

– تعني الصغار والكبار ؟

– وماذا يُمكنني أن أعني غيرَ ذلك ؟

– خطر لي أنّك ربّما قصدت أنّ الأعياد للناس جميعهم أيضاً .

– أجل يا بُنيّتي .. وهذا صحيح .. وعندما يُخصّص الكبار الصغار يعنون أنّ لهم فرحة العيد ومظاهره : مأكلا وملبساً ولُعباً جميلة ..

– وأسأل كذلك عن الجميع يا أبي .

– لقد أجبتك يا صغيرتي ..

– جميع الصغار .. يا أبي .. أحقاً أنّ الأعياد للصغار أجمعين ؟

– ومن يمنع صغيراً أن يُعيّد ؟

– أيعيّد الصغار وهم عُراة يا أبي ؟

– وهل حدّثك أحد عن هذا يا بُنيّتي ؟.

– أنا رأيتهم !

– أنت ؟ غريب !. ومتى ؟. أنتِ لا تغادرين المنزل إلّا إلى المدرسة .. ولا تخرجين في نزهة إلّا معنا .. ومن أين لكِ أن تدركي هذا بعد ؟. من همس في نفس الصغيرة مثل هذه الحكاية المؤلمة؟ .

– رأيتهم في المدرسة .. وهناك سمعت هذه الحكاية ..

– أفي المدرسة تتعلّمون مثل هذا ؟. أفي المدرسة يروّعون أولادنا ؟

– تُعجبني ثورتك يا أبي .. ولكن ليتك تثور للآخرين ..

– عمّن تتحدّثين ؟ .

– عن الصغار في مدرستي .. بعض الصغار العراة ..

– أفي مدرستك عراة ؟. كيف ؟. مستحيل !. ألعراة لا يتعلّمون يا صغيرتي ..

– ماذا تقول ؟. هذه حكاية جديدة أنت تعلّمني إيّاها يا أبي .

ـ أبداً .. أبداً .. ما عنيت شيئاً ..

ـ بلى .. أظنّك تعرف أكثر مما أتصوّر .. بقي أن تعرف أن بعض العراة في مدرستنا يتعلّمون .. وفي العاصفة ..

ـ أيّة عاصفة .. ماذا تعنين يا صغيرتي ؟!

ـ أتذكر الأيّامَ الصاخبةَ الأخيرة ؟. أما حدّثتني أنت عن جنون إله الرياح حتى غفوت ؟.

ـ بلى أتذكّر ..

ـ وفيها ألم تأخذني تحت معطفك ومظلّتك .. وفي سيّارتك إلى المدرسة ؟

ـ أجل .. أجل ..

ـ أنسيت أنّك كدت تدوس عند باب المدرسة صغاراً يتراكضون إلى المدخل .. هرباً من الأمطار الغزيرة .. ومن العاصفة المجنونة ؟؟

ـ بلى .. بلى ..

ـ هم أولئك العراة يا أبي ..

ـ ولكنّهم لم يكونوا عراة آنذاك يا حبيبتي .. كانوا يرتدون مثلك مرايل زرقاء ..

ـ السّرّ تحت المرايل الزرقاء يا أبتاه .. المرايل المبلّلة ..

ـ صحيح .. لقد كانت مرايلهم مبلّلة ..

– بل كانت ثوباً في ماء .. يمتلىء ويرشح ..

– مساكين ! ألم تحاول المعلمة أن تنتزعها عنهم ؟. ألم تخبريني مرّة أنّها انتزعت معطفك عنك ، وقد لحقته قطرات قليلة ؟.

– رفض الصغارُ أن يطيعوها كما أطعتها ..

– ألم يلذعْهم البرد ؟

– كانت أعضاؤهم ترتعش .. وأسنانهم تستكّ ..

– إذاً ولمَ العناد ؟. ألم يُحسّوا بالماء يلامس جلودهم ؟

– بلى .. وأظنّهم أحسّوا به يتسلّل إلى عظامهم ..

– يا لعناد الصغار ساعة لا يفهمون !!

– لم يكن الفهم هو الذي ينقصهم يا أبي .

– أتدافعين عن عنادهم أيضاً ؟. كلّكم سواء يا صغيرتي ..

– ليتنا نتساوى يا أبي !

– ماذا تقولين ؟.

– هذه المساواة التي تذكرها هي التي كانت تنقصهم ..

– لم أفهم !!

– كانوا عراة يا أبي .. أأدركت الآن ؟. خجلوا أن تُرفع مرائيلهم أمام العاصفة .. أتسمّي هذا عناداً ؟.

– عفواً إنسانتي الطيّبة .. أحقّاً ما تقولين؟ أكان الصغار عراة؟.

– هي الحقيقة .. رآها كلّ من في المدرسة .. كان القميص الصغير وراء المريلة يكاد لا يغطـّي شيئاً من الجسد المرتعش ..

– ولكنّ المريلة ليست أغلى ثمنـــاً من كنزة صوف تـُصنع في المنزل !

– ألمريلة ضرورة لا يُستغنى عنهـــا .. هي الثوب المشترَك .. هي المساواة الوحيدة بين الصغار يا أبي .. هي الصفة الرسميـّة التي تـُعطى للتلاميذ ..

– أفهم من هـــذا أنّ الجميع مُلزمون بالثوب المشترك .. وإلّا فهم لا يدخلون المدرسة ؟

– صحيح .. هذا هو النظام .. ولا فرق بعـد ذلك إذا كانوا عراة أو جياعاً ..

– هذا في مدرستكم أنتم يا بُنيـّتي ..

– وماذا في غيرها ؟

– يُختار التلاميذ فيها يا حبيبتي.. من غـــير الجياع والعراة .. يُفترض أن يكون الجميع فيها أثرياء مُتخَمين ..

– بابا .. ماذا بك ؟. أرى الدموع عالقة بأجفانك ..

– أبداً .. لا شيء يا حبيبتي ..

– لا تُحـــاول أن تُخفي مشاعرك عني يا أبي .. كلّ ما فيك يشير إلى انفعالك .. لقد ظننت الصغار وحدَهم يبكون ..

– وهل بكى الصغار كذلك ؟.

– بكت المدرسة كلّها يا أبي .. كانت العـــاصفة في الداخل أشدّ وأعنف ..

– وهل ..

– بكت المعلمات .. وبكى التلاميذ.. ولم نتبيّن بكاء الصغيرات العاريات ..

– أتماسكن صابرات ؟.

– لا أدري .. لم نميّز بين المطر والدموع .. كان شعرهنّ يرشح ماء .. ومرايلهنّ .. وكلّ مـــا ظهر من الأجسام المتهاوية أمــام العاصفة ..

– إذاً كان كلّ شيء فيهنّ يبكي ؟. وماذا حدث بعـــد يا عزيزتي؟.

– ألم تحدّثك ماما ؟.

– وبمَ تحدّثني ؟. أهي تعرف هذا الذي جرى ؟.

– كلّا يا أبي .. ولكنْ ألم تخـْبرك أنـّني أضعت قميص الصوف في المدرسة ؟

– أجل ، ذكرتْ لي شيئاً من هذا .

– لم أضـــع شيئاً يا أبي .. كنـّا ثلاثـــة نرتدي قمصاناً وكنزات . أبقينا واحدة وتخلّينا عن الأخرى ، وهكذا انقطـــع

البكاء في المدرسة .

– أنت رائعة يا صغيرتي !. أنت إنسانة كبيرة ..

– أنسيتَ العيد يا أبي ؟ ألم نبدأ حديثنا عنه ؟.

– أيّ عيد ؟.

– عيد الصغار .

– أجل .. أجل .. تذكّرت ..

– عيد المآكل والملابس واللّعب ..

– بل عيد الفرحة نُدخلها إلى قلوب الصغار يا صغيرتي ..

– إذاً أنا معك .. ألعيد للصغار .. أما زلت عند رأيك ؟. وهل أنت مستعدّ ؟

– خير إن شاء الله !!

– ستكون معي صباح العيد.. أذهب وإيّاك حيث أشاء..أخبرت والدتي وهي موافقة ...

– أهكذا تتّفقان عليّ ؟. أمركما مُطـــاع ... ولكن هل لي أن أعرف إلى أين تمضيان بي وفي يوم عيد ؟.

– ألا يسعى الإنسانُ إلى الفرحة يوم العيد يا أبي ؟

– أجل ..

– ستكون حيث تفرح ..

– أجد فرحتي في البيت بينكم يا بُنيّتي ..

– ألا يُفرحك أيضاً أن تكون سبباً لفرح الآخرين ؟.

– ماذا ؟

– ألا تتمّ بهجة العيد بأفراح الصغار العراة ؟. سيقـــام للصغار العراة احتفال في بهـــو المدرسة .. عندنا يا أبي .. ألا يسعدك أن نشترك فيه ؟

– أجل ... أجـــل يا إنسانتي الصغيرة .. لن تفوتنا المناسبة السعيدة !

عَلى شَاطِئ الرّمَال

– كم هي ملساء هـــذه الحجارة البيضاء يا أبي! لا أكاد ألمح أثراً لخشونة فيهـــا ... متى كانت الحجـارة في الطبيعة، هكذا مجلوّة ناعمة ؟

– أين تشاهدين الحجارة يا بُنيّتي ؟ أنا لا أُشاهد إلّا رمالاً تمتدّ مع الشاطىء الفسيح ...

– إقترب مني إذاً وتأمّل... واستمع إلى وقع الموج عليه عندما يمتدّ، وعندما يرتدّ ...

– أين تشاهدين هذا يا بُنيّتي ؟ وماذا تسمعين ؟

– هنا، هنـــا يا أبي ... وراء الصخرة أمامـــك ... ألا تتقدّم لترى ؟

– طبعاً ... طبعاً ... لن أدع المشهد الرائع يفوتني ...

– أتمزح يا أبي ؟.. سيتبدّل رأيك في الحال ... أنظر ... ما هو شعورك الآن ؟

ـ حقا إنّه لمشهد رائع !.. حجارة بيضاء مصقولة ...

ـ والعزف الساحر ، ألا يترامى إلى أُذنيك يا أبي ؟

ـ عمّا تتحدّثين يا حبيبتي ؟ أتسمّين صوت الموج على الحصى عزفاً ؟!. ألم تسمعي من قبل ، يا حبيبتي ، بهدير البحر ؟

ـ أهذا الذي تسمعه هدير يا أبي ؟ ومتى كان الهدير ألحاناً موقّعة ساحرة ؟!

ـ كم أُحبّ خيال الصغار يا صغيرتي ؟! يتوهّمون ما لا صلة له بالواقع ، وينسجون من أحلامهم عوالمهم السعيدة !!..

ـ وأين هو الوهم فيما أرى وأسمع يا أبي ؟!

ـ أنت لا ترين ولا تسمعين يا حبيبتي ... ألحقيقة أبعد ممّا تتخيّلين ! ألحجارة البيضاء في امتداد الشاطىء أكثر من أن تُحصر... وليس فيها ما يثير !!

ـ ولكنّك ذكرت الحقيقة التي هي أبعد من الخيال ، فما عساك تعني ؟

ـ ذكرت حقيقة الحكاية العجيبة المثيرة ... حكاية الحجارة الملساء الناعمة ...

ـ ما هذا الذي أسمعه يا أبي ؟ ألم تنكر هذه الحكاية منذ قليل ؟

ـ ألحكاية الحقيقيّة لم أُنكرها يا حبيبتي ... عشتها منذ زمن بعيد ... تأمّلت أسرارها ، وفكّرت بعجائبها ، وانخطفت بخيالي

إلى ملامحها القديمة قدمَ هذا الوجود ...

– على مهلك يا أبي ... أرى الكبار يتيهون في عوالم الخيال أكثر من الصغار ... دعْك معي يا أبي ... أراك بعدت !!.

– ألا تريدين حكاية الحجـــارة الملساء يا حبيبتي ؟ ألا يستهوي الصبيّةَ النامية أن تعرف كيف أصبحت الصخور الضخمة حجارة صغيرة ... وكيف تحوّلت الخشونة المسنّنة إلى نعومـة الصفحة المجلوّة ؟!

– وهل لهذا حكاية غير حكاية البحر والرمال يا أبي ؟

– وماذا تعرفين منها يا بنيّتي ؟..

– فكّرت بالرمـــل ، ذاتَ يوم ، كيف يتكوّن ، ومن أين يأتي ...

– وهل انتهيت إلى نتيجة ؟

– لقد انقطع التفكير بي عند أوّل خفقة موج على الحصى ...

– أخفتِ من البحر يا بُنيّتي وأنتِ ما زلت عنـد محطّ الموج ؟ وما تفعلين لو تمادى بك المسير في عباب بحر الفكر يا حبيبتي ؟!

– أللفكر بحرٌ وعباب بحر يا أبي ؟! وهل هو أعمق من البحر وأبعد مدى ؟

– هو أعمق ممّا تتصوّرين ، وأبعد مدى ممّـــا تتخيّلين ... تتلاطم أمواجه دفّاعة ، وتترامى أطرافه إلى ما وراء الآفاق ، فلا تدركين أقاصي حدوده !!

– أين شواطئه إذاً ؟ وأين رماله ؟ ومــا هي حكايتها ؟ أليس لها من حكاية كذلك ؟!

– لن أقسو عليك بحديثها يا حلوتي ... إنّهـا مثيرة ، ولا مثيل لها بين الحكايات ! وغداً عندما تكبرين ستمشين إليها ، وستتضاعف لذّتك كلّما خفق مجذافك ، بجهد يديك ، في عباب اليمّ ، وتمادى بك زورقك وراء غايته ..

– وهل يعمل الزورق ، في عباب الفكر ، إلى غاية ؟

– هنا سرّ الحكاية يا حبيبتي ... أودّ لو تظـلّ في المجهول تحفز إلى مطمح ، وتنمو مـع نموّك ، فكرة إثر فكرة ، خطوة بعد خطوة ... ولكنّني أودّ أنْ تعرفي أنّ بعـد الشاطىء والموج منتهى يلجأ إليه المتعَبون ، ومَقيلاً للطامحين عنده يقطفون الآمال ، ولكنّ قطاف الفكر لا منتهى له ولا مقيل ...

– وغاية المُبحرين في عُبابه ، ألا غاية لهؤلاء يا أبي ؟!

– ألغاية في بحار الفكر يا بُنيّتي ، حافز إلى غاية جديدة ، وكلّما تجمّعت الغايات في الدروب القصيّة السحيقة ، تفتّحت أبواب إلى دروب جديدة قصيّة سحيقة ...

– إذاً المفكـّرون مثقَلون أبداً يا أبي ، مرهَقون متعَبون ؟

– هذا خطـأ يا حبيبتي ! ألمفكـّرون لا يثقلون إلاّ عندما لا يفكـّرون ... جهد عقولهم راحة لعقولهم ولنفوسهم يا عزيزتي ... ألفكر الحيّ لا يعرف جموداً ... ألجمود بالنسبة له انحـدار إلى

فناء ... حياة الفكر أن لا يحـــلّ به كسوف ولا خسوف .
ألشعاع المرسَل ، في فيض عطاء الشمس ، هل يرهق الشمس أو يَثقل عليها ؟.. وهل تظلّ شمساً إذا ما تراخت في بذل أشِعّتها ، أو إذا ما تمنّعت ؟..

– وماذا يرى الأب الحبيب لو طلبتُ إليه أن يعود إلى ما بدأ به، إلى حكاية الحجارة الملساء ؟! أليس في تلـــك الحكاية ما يستهوي خواطره للغوص البعيد في بحار الفكر العميقة السحيقة ؟!

– بلى ، يا حبيبتي ... كدت أنسى ذلك ! ألست أنت التي بعدت بي إلى عالم البحر والرمال ؟

– وهل حكاية الحجارة الملساء غير تلـك الحكاية يا أبي ؟ وأيّ فرق تجد بين رمــال وحصى ، ترتمي كلّها أو ترتدّ ، في دوار الطبيعة التي لا تهدأ ، عند محطّ الموج أو مع انكفائه ؟

– لا فرق بينها يا حبيبتي ... إنّها من معدن واحد ...

– ما هذا الذي عنيته يا أبي ... قصدت أنّ واقعهـا واحد ... تتألّف لتكوّن الشاطىء ، ويسيّرها قـانون واحد ، هو قانون قدَر هذه الطبيعة ...

– ولكنّني بدأت بالحكايـة يا حلوتي ... حكاية الحجارة التي كانت رمالاً ، والرمال التي كانت حجارة ...

– أتسخر منّي يا أبي؟ إنّني عاجزة عن إدراك ما تقول !

– لن يفوتك الإدراك يا حبيبتي ... أتنظرين معي وتسمعـين ؟.

إرفعي بصرك إلى هـــذه الصخرة الكبيرة ... أتسمعين اصطفـاق الأمواج عليها ؟.. يا له من هدير !! ما رأيك بهذا الصراع الدائم المثابر ؟

– أيّ صراع تعني ؟

– ألصّراع الذي يفتّت الصخور الكبـــيرة ... فتتهافت تحت وطأته ويحتويها العباب ... ولا ينتهي الصراع إلّا وقـــد ترامت على الشطّ منهوكـة مثقلة لتروي حكايـــة القِمّة التي تهوي إلى السفح حجارةً ورمالاً ...

– وهل تعني أنّ الحجارة البيضاء الملساء هي فُتات تلك الصخور، وأنّ هذه الرمال هي فتات هذه الحجارة ؟

– في كلّ حبّة رمـــل قصّة طويلة من حياة هذا الوجود يا بُنيّتي ... فماضيها بعيد غارق في القِدم ... إنّها تحفـظ من التاريخ وتعي مـا لا يحفظه أو يعيـــه أيّ مخلوق من مخلوقات هـــذه الطبيعة ...

– وهل تعني الحيّ والجماد يا أبي ؟

– لا جماد يميّز من حيّ في الطبيعـــة يا فتاتي . كلّ ما في الطبيعة حيّ يعيش ويعبّر ... ويتكامـــل في السنين ... وكلٌ له حكاية قديمة عميقة ...

– وهل أفهم منك أنّ للصخور حياة .. ولحبّات الرمال ؟!

– ألم تسألي عن حكايتها يا حلوتي ؟ وهل يكون لها حكاية ولا

تكون لها حياة ؟ وهل يكون لها تحوّل وتبدّل وانتقال ، ولا يكون لها عيش ومعنى وتكامل في السنين ؟.. أيكون لها وجود، ولا يكون لها حياة ؟

– إذاً لحبّة الرمل ولادة يا أبي ، وللصخور ، فمتى ولدت ؟

– أنت تسألين عن تاريخ ولادة أشياء الطبيعة كما تسألين عن ولادة الجنين يا صغيرتي ... ألولادة في الطبيعة لا تؤرّخ بالساعات وبالأيّام ، ولا بالشهور ولا بالأعوام ؛ إنّها أبعد وأرحب ... مخاض وجودها لا يحدّه مكان ولا زمان ... إنّه في الوجود سرّ حركة الوجود ... وسرّ بقائه ... ومتى حُدّدت هذه الحركة أو حدّد ذلك البقاء ؟

– ونهايتها يا أبي ، ألا نهاية لهذا الوجود العجيب ؟!..

– عندما لا تحدّدين الولادة يا بنيّتي ، مستحيل عليك أن تحدّدي النهاية ، فالولادة التي لا تتمّ ولادة تظلّ تسعى إلى التكامل الذي لا يعرف نهاية ؛ إنّها الصيرورة في الشوق الدائم إلى أن تجد نفسها في ما يلامسها أو يتحرّك فيها أو معها أو بها ، وهي إذْ تذوب فيه أو تنصهر ، تندمج حياتها في الكلّ الذي لا ينفكّ يندفع في دوّامة جديدة ، سعياً وراء صيرورة جديدة ...

– ومتى يجد مستقرّاً يا أبي ؟ أيظلّ يضيع ويضيع ؟

– أين تصبّ الأنهر يا حلوتي ؟

– ألأنهر الصغيرة تصبّ في الكبيرة ، والكبيرة تصبّ في الخضمّ الأكبر يا أبي ...

– وماذا يحدث للنهر الصغير وللنهر الكبير يا بُنيّتي ؟ هل يضيع واحدهما في الآخر ؟!.

– ألا ترى ذلك يا أبي ؟

– ألحقيقة يا حبيبتي أنّ الرملة التي انزلقت من الصخرة القديمة الهرمة إلى شاطىء الرمال ، عادت إلى مسرحها الكبير الواسع لتتّحد مع ذرّات جديدة تعود بها إلى تحقّق جديد لا ينتهي ... والضياع يعني قلق الفراغ التائه ... فهل ضاعت حبّة الرمل عندما انتقلت إلى صيرورة جديدة ؟!

– والخضمّ الكبير ، ما حكاية وجوده ، وقد سُجن في الشّطآن ، وإن تمادت ؟!

– إسألي السحابة عنه يا حبيبتي ... هي التي تخبرك كيف تفلّتت من عقاله ، لينطلق إلى حكاية مصير جديد ، لا عقال فيه ولا ضياع .

السَّمكة الراقِصَة

– أودّ لو أُمسك بخيوط الشمس ، فلا أدعها تتمادى في انحدارها يا أبي . إدفع المجاذيفَ ولا تتوقّف ، لعلّنا بها نلتقي .

– ماذا ؟ تودّين إمساك خيوط الشمس ؟ أيعجبك المنظر الرائع إلى هذا الحدّ يا حلوتي ؟

– إنّه مدهش مذهل !.. وانعكاس الوهج الذهبيّ على الماء ، في إطار المساء ، لوحة لا أروع ولا أجمل ...

– وهل تريد فتاتي الجمال لها وحدها ؟ متى كان الصّبا المتفتّح على الصّحو أنانيّاً ؟ ومتى كان الجمال إلا مُشاعاً ؟

– وما الذي يُثيرك يا أبي ؟ ألستَ معي في هذه الروعة من النشوة والسحر ؟ ألا يسعدك أن نكون وحدنا ؟

– ولكنّ ابتهاجي بالروعة يتضاعف إذا ما شعرت أنّه يغمر الآخرين ويحرّرهم .

– ماذا تقول ؟ وهل الجمال يحرّر يا أبي ؟

– ألإحساس بالجمال يا جميلتي محبّة لمـــا في الوجود من انسجام، وخروج من حدود الذات المغلـقة إلى عالم اللون والشـّذا والتألـّق الفاتن ... إنّه عبادة، والعبادة تحرُّر كامل ... دعي الشمس تنتقل بالفرحة إلى عوالم الظلام ... فيتحرّر الكثيرون.

– وهـــل الحريّة لا تكون يا أبي إلّا في الضياء؟ ألا يمكن للحريّة أن تنمو في الغياهب المظلمة؟ ألا يكون الأحرار أحراراً إلّا إذا تحطـّمت القيود، وطـُوي وجود المستعبِدين؟

– وماذا ترى الأحلام المبكرة الواعدة؟

– تَرى في نفوس الثائرين المقيّدين، من الحرّيـّة، أكثر ممّا تراه في نفوس الخانعين الطـّلـَقاء يا أبي.

– ولمَ هم يثورون يا بُنيّتي الثائرة؟

– ليحرّروا النفوس التي لم تتحرّر بعد.

– إذاً هم لسواهم يعملون؟

– ألمْ أقل إنّهم أحرار؟ وهل يتحرّرون إذا كانوا أنانيّين لا يعنيهم إلّا خلاص أنفسهم؟.. حرّيتهم يا أبي في أن يجاهدوا للحريّة أينما كانت، فالإنسان الحرّ يظلّ يُحسّ بنقص في معـــاني حرّيته وفي تجسيد حقيقتها كلـّما تكاثر حواليـه عـــدد البشر الذين لم يتحرّروا ...

– ولمَ أردت إذاً أن تُمسكي بخيوط الشمس؟ أليس خطأ أن لا يُحسّ الإنسان بالجمال والخـــير والحقّ إلّا من خلال مطامعه ورغباته؟

ـ كنت على خطإ يا أبي .

ـ لست على خطإ الآن يا حلوتي . إنّ شعورك بالخطإ جَلاء لذاتك ، وكشف عن حقيقتك المبرّأة ، وغفران كبير .

ـ ولكنّني ظلمت أخي الإنسان ساعةَ لم أفكّر إلاّ بنفسي . لقد أيقظتَني على حقيقة غالية . كم أنا فخورة بك !

ـ إذاً أنت تفخرين بي ولا تحبّينني ؟!

ـ وهل يخطر لك ذلك يا أبي ؟

ـ فخرك بي إحساس بحاجتك إليّ ، وأنت تظلمين أباك ساعة لا ترين فيه إلاّ وسيلة لقضاء حاجة .

ـ لم أفكّر بهذا أبداً ... أنت تُعقّد الأمور ... تتعدّى قدرتي على الفهم يا أبي ... رفقاً بالأحلام الصغيرة ، الأحلام البراعم .

ـ أُريدك تحبّينني يا حلوتي ! أتصعب أَلِفباءُ المحبّة على القلب المتفتّح على ضياء ؟

ـ وهل الحبّ غير ما تحمله مشاعري وتنطق به أسارير وجهي؟

ـ أنا لا أشكّ في أنّك تحبّين أباك ... تحبّينه كثيراً . مستحيل أن تقسو الطبائع الفتيّة وتجفو ... ولكنّني أريد لمحبّتك في غد أيّامك تكاملاً محرّراً ...

ـ وكيف يتمّ ذلك يا أبي ؟

ـ إذْ نحدّدُ الإنسانَ بنفع معيّن ، ونربِطُ قيمته بخدمة من الخدمات ، يسهُل علينا أن نظلِمه ، وأن نتعالى مفاخرين بانتصارنا

عليه . ولكنّنا ، عندما نفهمه بقلوبنا لا بمصالحنا ، نُحسّ به إحساسنا بذواتنا ، فحينئذ نقسو عليه أو نستغلّه ، نكون كمن يسرق نفسه أو عليها يقسو وبها يستبدّ .

– وهل تريد للبشر أن تتساوى مشاعرهم وتتلاقى لتصبح واحدة؟

– أريد أن لا نأخذ من الإنسان أكثر ممّا نعطيه . إنّ شعورنا هذا محرّرٌ لنا مثلما هو محرّرٌ للآخرين . إنّ نزعاتِنا الفرديّةَ وغاياتِنا الأنانيّةَ هي التي تفصل بيننا وبين كلّ ما هو جميل وحقّ وخير ، هي التي تفصل بيننا وبين الله ذاته .

– أبي ، أبي ، أترى ؟
– أجل ... أجل ... يا لها من سمكة جميلة !
– إنّها كبيرة جدّاً !..
– إنّكِ ترينها بشهوتك إليها ... أجائعة أنتِ يا بُنيّتي ؟
– ألم تشتهِها كذلك يا أبي ؟..
– لقد أشبَعَتْ جوعي منها يا حلوتي . شبعت لأيّام ...

– وكيف تيسّر لك هذا ؟.. كالبرق الخاطف وثبتْ فوق الماء ، وبسرعة لمعت تحت أشعّة الشمس ... وسرعان ما احتواها المحيط وغابت !

– كان هذا كافياً يا حبيبتي ، لتتراءى لي في جسدها ألوان السماء في المساء ، ولتحرّكَ في خيالي وبصيرتي دنيا من التأمّلات مليئة بفرح الحياة . إنّ هذه الحركة الراقصة الجميلة أضافت إلى

سحر المشهد وموسيقاه سحراً جديداً ، وموسيقى جديدة ، فغمرت قلبي بالفرح المُريح . ألا تحسّين بمثل ما أحسّ ؟

ـ ألمح تألّق الغبطة على وجهك : في عينيك اللامعتين ببريق عجيب ، وفي عضلات وجهك ، وفي الشرايين النابضة بالفرحة ، ألمح ذلك كلّه فأشعر أنني معك يا أبي : فرحة سعيدة .

ـ كما تعود صفحة الماء إلى الصفاء بعد هدوء المجاذيف ، ستعود نفسك إلى الراحة الأنيسة ؛ وفي صمت السكون الموحي ، لن تفوتك رؤية الجوهر الكامن في تلك الأعماق الصافية . ستتحرّرين يا حبيبتي .

ـ ومتى لم أكن حرّة يا أبي ؟

ـ نحن عبيد لكلّ ما نجهله . عبيدٌ ساعةَ لا نعرف أنفسنا ، عبيد ساعة لا نعرف غيرنا ... وعندما تتمّ لنا تلك المعرفة ، ننسجم ونحبّ ...

ـ وعند ذلك نتحرّر ، أليس كذلك يا أبي ؟..

ـ ألم أقل لكِ إنّ فتاتي قادرة على الوصول ؟

ـ إلى أين تريدني أصل ؟ دعني معك في هذا التَّطْواف الرخيّ . أودّ لو أظلّ على صفحة الماء ، مع الموج ، في سباق الرياح .

ـ لا بدّ لحبّة الرمل ، مهما طال تجوالها ، من أن تنتهي إلى الشاطىء . لا بدّ من نهاية لكلّ تجوال .

– وهل هي واجدةٌ نهايتَها يا أبي ؟ وهـــل تكون نهايتُنا في عودتنا إلى الشاطىء ؟ أوَتلومني بعدُ إذا ما رغبت في هذا التجوال المتمادي ؟

– حبّه الرمل لا تنتهي عندمـــا تعود إلى الشاطىء . إنّها تتّحد برفيقات كثيرات ، لتتمّ عمليّة البقـاء الذي لا يتوقّف ، ولتروي من جديد حكاية القمـّة التي تهاوت ، في عناد الموج الذي يروي حكايته هو الآخر ، لتتحوّل حبّات رمل في الشاطىء الفسيح .

– وماذا يكون من شأننا عندما نعود ؟

– حبّات رمل كذلك ، لها مثيلات في شاطىء الخَلق ، تتّحد وتنسجم ، وكلّما تماسكت في اللّقيا السعيدة ، أدركتْ قيمـــة وجودها ، وخرجت من ضَياع ، وخرجت من تفاهة .

– وهل ينتهي تطوافها يا أبي ؟

– أتنظرين إلى الشمس يا حلوتي ؟

– إنّها تغرب ... تزلق فوق المـــاء ، في انحدار المتثائبـــين الكسالى . آه ، ليتني ...

– ماذا ؟ أعادت فتاتي إلى ضياع النفوس المضلّلة ؟ أتتمنّيْن أن لا تَغرُبَ الشمس ؟

– أبداً يا أبي .. إنما أتمنّى لو أعود إلى الشاطىء ...

– أنت تحيّرينني !! منذ دقائق كنت تتمنّين أن لا تعودي !!

– أتعرف الشمس إلى أين تذهب يا أبي ؟

– لقد قلت إنّ عالماً آخر ، غارقاً في الظلام ، ينتظرها .

– والسمكة ؟ إلى أين ذهبت السمكة ؟

– إلى غياهب الظلمات الخفيّة ..

– تعني أنّها هي الأخرى انحدرت إلى ظلمات تبعث فيها الحركة والحياة ؟

– أجل ... أجـــل ... أنت تسبقين قدرتي على استلهام الخواطر .

– إذاً ، دعنا نعدْ من تطواف الضائعين يا أَبي ، فعلى الشاطىء المظلم ، الذي غابت عنـــه الشمس ، من ينتظر النفوس التي تحرّرتْ بالمحبّة .

العبَادَة ... جِهَاد

– ليتنا نظلّ هكذا ، فلا يعكّر صفوَنا أحد يا أبي !!

بهذه الكلمات تعالى صوتها من على القمّة المطلّة على المنبسَط الفسيح ، والطبيعة في يوم عرسها الكبير ؛ مهرجان الخضرة وألف لون ، ومهرجان الأضواء تتهادى على ترانيم الحساسين المغرّدة . ومع الانحدارات السحيقة تنتصب المياه أعمدة في شلّالات ، ترمز إلى السخاء والفيض ، والتدفّق الذي لا ينقطع ...

– أبي ... أبي ... ما لك لا تجيب ؟ أيدبّ الصمت إلى قلبك ، فيبعث فيه الخوف والرهبة ؟!

– أنت على حقّ يا حلوتي ... يخيفني ويرهقني أن أعكّر هذا الصحو يبعث النشوة والخشوع ويطلق الخواطر .

– ولمَ تريد ابنتك بعيدة عن نشوتك وخشوعك ، وانطلاق خواطرك ؟

– أنا في صلاة يا حلوتي ... ولمن يصلّي الأب ساعة يخلو إلى

هيكل العبادة ؟ من يكون في قلبه يستنزل لهم السعادة ، وينثر على اسمهم البخور ؟

– ألا تريد عابدة تشعل ذلك البخور ، وترسل ترانيم البوح المقدّس ؟ دعني أُشاركك صلاتك يا أبي .

– أأنت قادرة على الصلاة يا بُنيّتي ؟ ألعبادة تحرُّر ، فهل تشعر صغيرتي بأجنحتها حرّة طليقة ؟

– ليس لنا مشاغل الكبار لنحسّ أجنحتنا مثقَلة متعبة ، وليس لنا مداركهم لنعقّد الأمور فيطغى ذهننا على إيماننا ، وليس لنا مطامعهم لنخلِط بين الحقّ والباطل ، وبين جوهر الحياة وأوهامها !!

– لم أسعَ إلى إثارتك يا حلوتي . ما للبرعم الحيّ ينتفض ويرتعش ، ألا يخاف على أوراقه أنْ تتجرّح ، على عبيره أنْ ينتشر قبل اكتمال سرّه وسحره ؟

– وكيف تريد البرعم يتفتّح؟ لفح التحدّي كلفح أشعّة الشمس ، وانتفاضة الطبيعة في النموّ كانتفاضة الشرايين ، تَخِز فتحفِز وتفجرّ الكوامن .

– أتحسّين بدافع إلى الصلاه يا عزيزتي ؟

– أتدعُوني إليها يا أبي ؟

– ألظّامىء يسعى وحده إلى النهر ! لحُّ الحاجة في نفسه إلى الارتواء هو طريقهُ إلى الضّفاف السعيدة ... فهل أنتِ ظامئةٌ يا بُنيّتي ؟

– متى ينقطع ظمأ البرعم إلى النموّ يا أبي ؟

– في الظمإ إلى النموّ إحساس بحاجة ذاتيّة ... والظمأ إلى الصلاة شعور بالتحرّر بعيداً عن حدود الذات وشقائها العابر ...

– تريدني إذاً أن أنطلق من حدود ذاتي يا أبي ؟

– لم تحقّقي ذاتك بعد ، لتنطلقي من حدودها يا صغيرتي ...

– ولكنّني حرّة يا أبي ... لو عرفت ذاتي لتعقّدْت . أُريدني أظلّ هكذا كالفراشات في الطبيعة ، كالحساسين ، كالينابيع ، كالنسائم ، لا أرتبط بشيء ، ولا يشدّني نظام ، ولا أخضع لقانون .

– والصلاة ؟ ألا تريد بُنيّتي أنْ تصلّي ؟

– بلى يا أبي . وهل تحلو الصلاة إلّا في الطبيعة ؟ وكلّ ما في الطبيعة ، أليس عابداً يسبّح باسم الخالق ومجده ؟ دعني في عفويّة هذه العبادة : أتنفّس صلاة الإيمان الحقيقيّ ، كذلك الزاهدِ المنفرد على تلك الذروة العالية .

– ألعبادة لا تكون هروباً يا حبيبتي . ألعبادة الحقيقيّة مجاهدة ، تبدأ بتحرير النفس ، وتنتهي بتحرير الآخرين . والصلاة الواعية أكثر تأكيداً على إرادة التحرّر من الصلاة العفويّة الساذجة .

– ألم تحدّثني أمس حديث العُبّاد المنقطعين في صوامعهم يا أبي ؟ ألم تكن معجباً بما انتهوا إليه من زهد بالدنيا ، وارتفاع عن شهواتها ومطامعها ؟!

– هذا مَثار إعجاب ولا شكّ يا حبيبتي ، وموضع تقدير ،

ولكن ما أجمل العبادة بين النـاس ، في صميم زحمـة المطامع والشهوات .

- كيف يستطيع العابد أنْ يزحم الشرّ براحتيه ليبعده عن صفاء نفسه وطهارة وجدانه ؟! أتريده يعكـّر ازرقاق سمائـه بظلام العتمة المطبِقة ؟

- ألنـّفوس المطهّرة المختارة لا تدنـّسها مواجهـةُ الشرّ ، ولا تؤذيها الحقيقة مهما كانت ... تخترق الحجب الكثيفة ، وتبدّد السواد المتراكم ، وتفسح للنفوس المتعَبة المدنـّسة طريق خلاصها الأبديّ .

- كيف تريد العبادة تتمّ يا أبي ؟ أتريدهـا على قارعة الطريق ، وفي البيت والمدرسة ، أو لعلـّك تريدها كذلك في المتجر والمقهى ؟!

- ما أروعها تكون هناك يا حبيبتي ... ألعبـادة رسالة ، وهل تكون الرسالة إلّا لمن وُجـدت له ؟ وهل تُؤدّى إلّا حيث ينبت الباطل ، وتنشأ الخطيئة ، وتدبّ عقارب الشرّ ؟ وُجِدت العبادة للخطـأة يا بُنيّتي .

-ألم تقل أنت يا أبي إنّ النهر لا يذهب إلى الظامئين ، بل الظامئون هم الذين يرِدون مياهه من غير أن يدعوهم أحد إليه ؟!

- ومياه النهر إلى أين تنتهي إذا ظلـّت في قناتها ؟ أتعرفين حكاية مصيرها يا بُنيّتي ؟!

- مياه النهر تنتهي إلى البحر .

– والتربة الظامئة اليابسة ، أتـُفيد منها ؟

– أجل يا أبي . متى خرجت من حدودها وانطلقت في شرايين جديدة تُمدّ الخصب والعافية .

– إذاً هي التي تخرج من حدودهـــا . ألأرض اليابسة لا تأتي إليها لتروي ظمأها . وأكثر من ذلك ، هل لـك أن تميّزي بين نهاية الميـاه تصبّ في البحر ، ونهايتهــا تتوزّع في الأرض لتنعش التربة الموات وتحييها ؟!

– لا أظنّ الأفكار واضحة لديّ !!

– ألظـّامئون يأتون بدافع الحاجة إلى الشرب ، ولكن ما لذّة المياه إذا زحف إليها الظامئون ؟

– لذّتها أن تمطي ، أن تروي النفوس الجافـّة .

– ألا تتضاعف لذّتها إذا ما سعت هي بدفقهـا السخيّ ؟ وأيّة لذّة تعادل الانطـــلاق من حدود الأنا المغلقة ، التي تحصر كلّ شيء فيها بانتظار النهاية المرعبة ، حيث تضيع متلاشية في الخضمّ الكبير ؟ وماذا يكون إذا لم يسعَ إليها أحد ؟

– أجل ، أجل ، أنت على حقّ يا أبي ..

– أتفهمين الآن يا حلوتي ؟ أتدركين حكاية الزاهد المتعبّد الذي يترك عزلته ليؤدّي رسالته بين الناس ، في صميم مشاكلهم ، يعايش تجاربهم ، ويختبر معاناتهم ، ويسعى بين العرق والدماء واللهاث الهموم والنزوات الجامحـــة إلى أن يُقيل العثرات ، ويجلو

صدأ النفوس ، ويسدّد الخطى إلى الرباع الآمنة الهنيئة ؟

ـ أتظنّ ذلك لا يشكّل خطراً عليه ؟ ألا يخشى أن يجرفه الواقع ويدنّسه ؟

ـ ألعبّاد الحقيقيّون لا ينجرفون . مناعة نفوسهم تحول بينهم وبين ردّة العودة إلى الباطل ... وهم لا يخافون ولا يُخشى عليهم ، وإذا خاف بعضهم فلأنّ عبادتهم ما تزال ناقصة ، والعبادة الناقصة لا تتكامل وتصفو إلاّ في العودة إلى صميم التجربة والمعاناة ... والزلل هو طريق الخلاص يا حبيبتي ...

ـ يعجبني إيمانك في حماستك ، وأنت تتحدّث عن المؤمنين يا أبي ...

ـ هنالك حكاية جديدة ما مشيت بها إلى مسامعك بعد .

ـ وما هي يا ترى ؟

ـ أسمعت بالأنبياء والرسل والمعلّمين يا حلوتي ؟

ـ أظنّني سمعت بهم يا أبي .

ـ وحكايات هدايتهم ، أترامت إليك ؟

ـ من أين لي ، وأنت من قال إنّني ما زلت في عمر البراعم ...

ـ كلّها حكاية واحدة تدركها حتى البراعم ... حكاية نشأت في عالم الإنسان ومن أجل خلاصه يا بُنيّتي . حكاية الخير الذي ترك عزلته وأبراج صومعته ، ومشى بأنامل الحقّ يمسح الجفون

بالحقيقة ، والضمائر بالعدالة ؛ والقلوب بالمحبّة الخالصة . أيعجب ذلك صغيرتي ؟

– بل يثيرها يا أبي .. فتتلمّس بأنامل الحقّ جفونها وضميرها وقلبها ...

– والعبادة ؟ أما تزال بُنيّتي تصرّ على أن تكون عابدة ، قبل أن يتكامل نموّ البراعم ؟

– دعني أبدأ بالصلاة ، قبل أن أبدأ بالعبادة الحقيقيّة يا أبي .

نَقِيق الضّفادع

طابت جلستُها على ضفاف الغدير ...

ومضى الخيال بالنظر يستحمّان معاً، في عطور الروض ونسيم الجوّ المسحور .

وفي الطبيعة أجمل ألوانها ، بل كأنّ ألوانها كلّها تجمّعت دفعة واحدة ، لتُطلع هذا المشهد المتألّق . ففي الطبيعة ، إذاً ، كلّ عبيرها. وللطيور وللفراشات تجوال الحُريّة ، تخفق أجنحتُها وتندفع في المدى المُشاع .

وأثارتها أصوات غريبة تتعالى ...

كانت الضفادع تنقّ ...

وتساءلَت :

– أسمع أصواتاً لم أسمعها من قبلُ ... ولا أرى مصدرها ، فما هي ؟ ومن أين تنبعِث يا ترى ؟!

– ألا ترَيْن الغدير يا بُنيّتي ؟

– أجل ... ها أنا ألمح صفحته تتراقص كلّما خفق النسيم ... ألا تراه وأشعّة شمس المغيب تخترق الأغصان لتقبّل الصفحة المجلوّة ؟.. ولكنّني لا ألمح غير ذلك يا أبي .

– بلى ... بلى ... ستجدين الجواب عن دهشتك يا حلوتي . هل لك أن تقتربي إلى الحافّة لتُطِلّي على الشاطىء !

– ولِمَ أفعل ذلك ؟

– إفعلي قبل ، وسترين ...

– وإذا سقطت من على هذا المرتفع ؟.

– سيتعالى النقيق أكثر ...

– أيّ نقيق هذا؟

– ألأصوات التي تسمعينها تسمّى نقيقاً يا حبيبتي .

– ومن أين تصدر ؟

– أيّ نقيق تعنين ؟ حدّدي أوّلاً ، فلكلّ مخلوقٍ نقيق يختلف عن الآخر ...

– وهل للإنسان نقيق يا أبي ؟

– إنّه أبشع أنواع النقيق . بل أسوأ ما في الإنسان يا غرّيدتي . مزعج إذ يرتفع هدّاراً، ومرهق ثقيل إذ يتمادى متجاوباً، وطالعُ سوءٍ إذ يتوالى منقبضاً مثيراً ...

– وهذا الذي نسمعه ، أنقيق بشر هو ؟

ـ هو نقيق ضفادع . . . ألم أقل أطلّي من على المنحدر فترين . .

ـ أجل يا أبي . . . ها أنا أطلّ . . .

ـ أطلّي بعد ولا تخافي . . .

ـ وما رأيك الآن ؟ أأنت راضٍ ؟

ـ وأنت ؟ أترين ما يُرضيك ؟

ـ يا للمنظر العجيب !.. إنّها تقفز بين الأعشاب الخضراء ، وتثب إلى الماء . . . وكأنّها تلعب أو ترقُص . . . هذه هي الضفادع ، أليس كذلك يا أبي ؟!

ـ أجل ، هذه هي .

ـ ولكنّها لا تنقُ .

ـ هي مشغولة مع نفسها عن ذلك يا حلوتي...ولكنّها لن تفوّت الفرصة لتتكامل نشوتها . . .

ـ وهل هي تنتشي إذ ترسل صوتها المزعج ؟.. ألا يخدّش صوتها مَسمعَيك ؟

ـ ليس لها أن تختار يا بُنيّتي . إنّها لا تتعمّد إزعاج أحد . . . ليس صوتها من صنع نفسها . هكذا وُلدت وهكذا تحيا . . . إنّها لا تلام لما هي فيه . . . أيُلام المخلوق لمــاذا يتنفّس ؟ ولِمَ يجوع أو يظمأ ؟!

ـ إنّه مرتفع لا يبَحّ . . . هل هو دليل على قوّتها يا أبي ؟

– هو دليل على طبيعتها يا بُنيَّتي . أترين شكلها ... أيعجبك ؟

– هو مثال للبشاعة ... كأنّها مخـــلوق مُسخ بدل أن يخلق خلقاً سويّاً ...

– أتريدين صوتها يكون غيرَ شكلها ؟ أتعترضين على الانسجام في الخلق ؟

– أنا لا أعترض .

– ولكنّك لا تستغربين ...

– ماذا تريدني أن أستغرب ؟

– أن لا ينسجم الخلق جميعهم في ما هي عليه طبائعهم وأشكالهم، وفي ما يؤدّون من مواقف . فالضفدعة ساعة ينسجم صوتُها مـــع شكلها ، تـرَيْن فيها جمالاً فنّيّاً مريحاً ؛ ألم تسمعي بالجمال الفنّي، في الشكل القبيح أو في الشكل الجميل ؟

– أظنّني سمعت يا أبي ، ولكن هـــل يُلام الإنسان إذا سَمع ولم يفهم ؟!

– هو يُهنّأ ولا يُلام يا حلوتي ، شرط أن يعترف عارفاً نفسه. وكم هم قليلون أولئك الذين يتجرّأون على مواجهة الحقيقة .

– لا أحسّ أنّني أتجرّأ على شيء . وهل من الجرأة أن لا يكذب الإنسان على نفسه ، أو أن لا يُزوّر مشاعره ؟

– أنت كذلك تحسّين لأنّك لم تكبري بعـــد يا حبيبتي ... ما تزال نفسك كصفحة المـــاء الصافي، تُرعشه النسمات ، ويستحمّ

الضياء فيه ، وتظلّ الضفادع عند شطآنه تنقّ من غير أن تتجرّأ على النزول إلى أعماقه ... ما أروع أن يظلّ الكبار صغاراً يا صغيرتي .

– وهل هذا هو الانسجام في الخَلْق يا أبي ؟ أمن الجمال أن تشهد رأسَ صغيرٍ على جسمِ كبيرٍ ، أو العكس ؟

– ما هذا الذي عنيته يا ربيع أيّامي . قصدت الروعة التي تكون عندما يتحلّى الكبار بطهارة الصغار وبراءة ذواتهم . أريد الكبار لا يلوّنون نفوسهم بالظلمة الغريبة عن طبائعهم . أودّ أن لا أسمع كبيراً ينقّ ...

– وكيف تفرّق بين صوت وصوت ؟

– ألإنسان ذاتٌ متطوّرة ، وعقلٌ مدركٌ قادر ، والضفادع غريزة ... من المستحيل أن أُسلّم بأن تنحدر الذات الإنسانيّة والعقل الإنسانيّ إلى مستوى الغريزة . ألإنسان ينفعل ، والضفادع لا تنفعل .

– ولكنّك تحرّم على البشر أن ينفعلوا !.. أليس من حقهم البكاء إذا ما اهتاجت مشاعرهم ولذعتهم ألسنة التجارب ؟.

– أصداء الجراح المُثارة غير النقيق النادب يا حلوتي . بكاء العين الموجَعة ، والقلب المصاب ، شريعة طبيعيّة تميّز بها الإنسان وبه ارتقت... إنما ما أبعد هذا النوع عن الضفادع البشريّة التي تتوهّم المصيبة فتتجهّم ، أو تغلق قلبها عن الخير فلا تنتظر إلّا باطلاً وشرّاً ...

– وهل هؤلاء موجودون حقّاً يا أبي ؟.

– أكثر ممّا تتصوّرين يا صغيرتي ...

– ألصّغار لا ينقّون ، أليس كذلك ؟

– هذا ما أتمنّاه ... ما أُصلّي له ...

– حتى ولو بكوا ... ولو تمادَوْا مُلِحّين ... أو مطالبين بحاجة ؟!

– هو دلال الصغار ... إنّه البهجة التي تُرقص الغدير ، وتُطرب الغابة ، وتنتعش بها الأوراق الذابلة ...

– أرأيت إلى وجهك في المرآة وأنت تبكين ؟

– أجل ... حدث ذلك مرّة ...

– لا . لا . عفوك ... قصدت وأنت تضحكين ...

– كيف يا أبي ؟ أضحكٌ وبكاء ، وفي وقت واحد ؟

– ألم تقولي إنّك شهدت وجهك في المرآة ذات مرّة؟ .

– أجل ... وقلت إنّني كنت أبكي آنذاك ...

-- وماذا رأيت في المرآة ؟.

– وجهي الذي كان يستقبل الدموع .

– وماذا غير ذلك ؟..

– لا أذكر يا أبي ...

ـ أتخون الذاكرة صغيرتي ؟.. خجلت السنون في عمر أبيك أن تعترف بذلك ...

ـ أرأيت أنت غير هذا ؟..

ـ رأيت الضحكات ترتشف الدموع ... والفرحة السعيدة تغمر العبوس المتلبّد ، وإذا بالعرس المزغرد يلفّ المأتم المنهمر بالدموع ، ويطويه ...

ـ تقصد أنّني سريعاً ما أضحك وأنا أبكي ؟.. أنت على حقّ... ولكن أليس هذا ما يفعله الكبار أيضاً ؟

ـ مأتم الكبار مأساة تكاد لا تنتهي ... ودموع نواحهم سكب يكاد لا ينقطع ...

ـ لعلّ هذا بمقدار تجاربهم يا أبي ... وهل يستوي الكبار والصغار في التجربة ليتساووا بالمأساة ؟!

ـ المتمرّسون بالتجارب لا يبكون يا حبيبتي . أبناء الحياة المعاركون يدركون حقيقة المعركة ، فيتقبّلون ويُقدّرون ... يعرفون أنّ المطمح الكبير لا بدّ له ليتحقّق من تضحيات كبيرة ... وأنّ طريق الآلام المعذّبة ، هي طريق الوصول إلى الواحات السعيدة .

ـ أحقّاً هم لا يبكون أبداً يا أبي ؟ يخيّل لي أنّي رأيت الدموع تنسكب من عيون بعضهم ...

ـ هذا صحيح يا غاليتي ... كثيراً ما تُساقط عيونهم الدموع .

– أنت تحيّرني ... أدموع ولا بكاء ؟! كيف تتمّ المعجزة يا ترُى ؟

– ألنّار التي تجلو المعدن الثمين تحرقه لاذعة ، وتتُطاير منه الشّرر ، ولكنّها تجلوه وتنقيّه . والآلام مَطهر للنفوس الكبيرة ، أمّا البكاء النادب فضعف عاجز ؛ وأمّا أبناء التجربة ، أبناء الحياة ، فقادرون لا يبكون ... أفهمت المعجزة كيف تتمّ الآن يا بُنيّتي ؟

– إذاً أنت لن تلومني بعد ، إذا رأيت دموعي تنهمر يا أبي ؟!

الأمّ لا تَتعب

– ألحديقة عارية يا أبي .

– هي سُنّة الحياة في الطبيعة يا بُنيّتي .

– وهل ترضى أن يكون أولادك عراة ؟. ألورود في الحديقة أولادي . وُلدوا بين يديّ واحداً إثر واحد ، وكالأُمّ الواعية لمسؤوليّاتها ، فرحت بهم ينمون ويكبرون ويبوحون باللّون والعطر ، فيؤنسون عوالمي ويُدبّون الفرحة والروعة في الطبيعة .

– ألطّبيعة هي التي أعطت وهي التي تأخذ ... أنت لم تفعلي أكثر من أن تكوني خادمة مخلصة في معبد الطبيعة ، تشعلين النار في البخور ، وتحملين الكأس المنعشة إلى عبّاد الهيكل ، ولكنّك لست إله الهيكل ولا كاهنه .

– ولكنّني تعبّدت لهذه الوردة ، فزهت على يدي ، ونمت في ضياء عنايتي ، ولولاي لما دبّت فيها الحياة .

– لست الأمّ الحقيقيّة يا حلوتي . تستطيع الورود أن تستبدلك بثانية ، ولكن هل هي قادرة على أن تستبدل الطبيعة ؟ ألأمّ

الحقيقيّة لا يستعاض عنها .

– ولكنّ الأمّ لا تقسو، وهذه الطبيعة تقسو يا أبي. ألأمّ لا تجرّد أبناءها من كسوتهم لتعيش هي ، لتفرض سنّتها كما تقول . لم تكن الأمّ أنانيّة أبداً .

– هذا الذي تسمّينه قسوة هو رحمة من الطبيعة وانتفاضة خلق . هي تفعل ذلك حرصاً على أولادها يا حلوتي .

– لم أفهمك يا أبي ! ألا تكون الرحمة إلّا بالعري والعواصف والبرد القارس ؟!

– ألطّبيعة تثور ، والثورة تجدُّد ، ولا يتمّ للثائرين ذلك التجدُّد إلّا إذا اقتلعوا القديم البالي ، قبل أن يقتلهم الثائرون المتجدّدون .

– وكيف يتمّ التجدّد إذا تساقط الورق وتقصّفت الأغصان ، وأصبحت الغِراس والورود يباساً مخيفاً ؟

– ليتك تنظرين إلى أبعد من الظاهر يا ُبنيّتي . ألحياة التي تسيل في العروق، أنتِ لا تريْنها، ولكنّها تسيل وتـُدبّ الحيويّة والنشاط، وتمدّ العمر بالبقاء السخيّ .

– وهل هذا هو شأن ما في الطبيعة من شجر ونبات ؟!

– هي لا تختلف عن الإنسان أبداً . عروقها ناميــة ، وأُصولها في الأرض تمتصّ من التربـة الأمّ وسائلَ الغذاء ، وترفعها بحنوّ الطيّبين إلى البراعم حيث تتكوّن ، وإلى الفروع فتنشط وتعيش ، ويأتي الربيع فإذا هي مزهرة مورقـة ... ولا تبرح الثمار الشهيّة

حتى تعقد لها الرايات : بين وهج الحَـرور ، ودفء التربة الحاضنة .

– إذاً ستعود إلى الحديقة بهجتُها ، وسأراها كما كانت : عطراً شهيّاً ، ومنظراً بهيّاً ، ومقيلَ مستظِلّ ، وملعب منقار وجنـاح ؟!

– سترينها كذلك يا حبيبتي ... شرط أن توفّري لها العناية والحبّ ...

– وهل لا تعيش بغير عنايتي وحبّي ؟

– حتى النبات والشجر لا تعيش بغير ذلك .

– عجيب !.. ولكنّك قلت من قبل إنّ الطبيعة هي التي تعتني بأولادها !. هي التي تمدّ عروقهم بالحياة ، وتسكب في البراعم سرّ الجمال الساحر .

– ألطّبيعة قادرة على ذلك يا بُنيّتي. أنا لا أُنكر ذلك.ولكنْ الذي أعترض عليه هو أن تنكري أنت دورك كأمّ ، مع دور الطبيعة .

– أنا أمّ ؟!. ماذا تعني يا أبي ؟

– ألم أسمعك تدافعين عن الحديقة فتقولين: « إنْ أزهارها أبنائي، ربوا بين يدي ، ومن راحتي غذّيتهم ، ومن عرق عافيتي ؟ »

– بلى قلت ، وهذه هي الحقيقة .

– إذاً الطبيعة الأمّ بحاجة إلى من يساعدها؛ إلى أمّهات يحملن عنها بعض أعباء المسؤوليّة .

– وهل تتعب الأمّ يا أبي ؟

– ومن لا يتعب ؟ أأنت لا تتعبين ؟

– كنت أظنّ أنّ المحبّين لا يتعبون ، وأنّ الأمّهات في الحبّ لا يتعبن ... أو على الأقلّ لا يُحسسن بالتعب .

– هذا صحيح وممكن. هم يتعبون كثيراً ، ولكنّ عاطفة التضحية بالذات،والشعور باللـذّة في أداء الواجب تغمر النفس بالنشوة المريحة، فيتلاشى كلّ حسّ بتعب .

– ولكن لِمَ تريدنا نساعدها؟

– يوم تجفّ السماء فلا تمطر ، وتجفّ التربة فلا تَقوى على مدّ العروق بالحياة ، تظلّ الغراس والورود تأكل من نفسها ، وتعيش على غذاء ذاتها ... فتخاف الأمّ أن ينفد الزاد وينضب المورد . فييبس الأصل والفرع ، وتموت البراعم ، وتتساقط أزاهر العبير .

– فهمت ، فهمت يا أبي . ألطبيعة فصول ، ولكلّ فصل مَدده وغذاؤه . ألشتاء الذي يعطي المطر ، والربيع الذي ينبت البراعم وينمّيها ، ويخزّن طاقات الغراس ، والصيف الذي ينضجها ويفجّرها ، والخريف الذي يعرّيها ليفسح لها مجال التكوّن والخلق المتجدّد .

– أعرفت دورك إذاً ؟ أنت مدعوّة إلى أن تكوني فصلاً يتداخل في جميع هذه الفصول : يرفع الثلوج ، ويردّ الفيضان والسيل عن الحديقة في الشتاء ، ويقلّم الأغصان الطويلة ، ويساعد البراعم على الشبع والريّ في الربيع ، ويحفر التربة ويُسيل الجدول إلى

الأرض اليابسة في الصيف ، ويعدّ الأرض في الخريف ، لتكون قادرة على التقبّل والتخزين والتغذية في الفصول المتعاقبة من بعد .

– إنّه دور شاقّ يا أبي .

– ومن قال لك إنّ دور الأمّ غير شاقّ يا بُنيّتي ؟

– ما ظننته كذلك . تصوّرت أنّ دوري يبدأ وينتهي بسقي الورود وشمّ عطرها ، وتزيين أثوابي وغرفتي بها .

– ليس هذا دور الأمّهات يا حلوتي . لعلّه دور الأمّ التي يكون أولادها لعباً من ورق ، أو من جصّ ملوّن !! ولا أحسبك تودّين العودة إلى ذلك العالم ، على حلاوته !!!

– أتتحدّاني يا أبي ؟

– أبداً ، معاذ الله ! سعيت إليك مداعباً لأنبّه الخواطر الأبكار إلى أنّ مطاليب الأبناء كثيرة إذا أرادت الأمّ أن تقوم بدورها كاملاً ، وهذا ما لم تتهرّب منه أيّة أُمّ حقيقيّة .

– وهل في الحديقة أشواك يا أبي ؟

– ألشّوك هو سياج الورود يا بُنيّتي ، ألم تتنبّهي لها من قبل ؟

– كنت أرى الورود ولا أرى الشوك ...

– هذا موقف غير المسؤولين ... لو كنت مسؤولة لرأيت الشوك قبل الورود ، حرصاً على أبنائك وحماية لهم . في الموقف المسؤول لا تتغاضى الأمّ عمّا يؤذي ، ولا تلهيها رؤية الجمال عن رؤية البشاعة .

– وهل الشوك مع الورد بشاعة يا أبي ؟

– ألشّر بشاعة أينما كان . ولعلّ بشاعته مع الورد تزيد ، في المقابلة والاستنتاج .

– وفي المقابلة والاستنتاج تزيد روعة الجمال. فهو مفيد إذاً، ولولاه لما تألّقت مفاتن الجمال هكذا رائعة .

– هذا صحيح يا بُنيّتي ، ولكنّه لا يزيد الشوق قيمة في ذاته . ألقيمة الحقيقيّة هي التي تنبع من الذات إلى الذات . ألظّلمة تزيد في قيمة النور حتى ولو كان شمعة شحيحة شاحبة ، ولكنّها لا تُكسب ضياء ولا تتعدّى قيمتها حدود العتمة الدامسة .

– إذاً لماذا نبقي عليها ؟ لنقتلعها . لنلقِ بها بعيداً عن الجمال .

– أنت تخالفين بذلك سنّة الطبيعة يا بُنيّتي . هناك ورد بشوك ، وهنالك شوك من غير ورد ، وهناك ورد ولا شوك. وكلّها في الطبيعة تتبع شريعة البقاء التي تستحقّ . وعندما تفقد قيمتها في الوجود ، يُستغنى عنها ، وتُنتزع غيرَ مأسوف عليها .

– ولكنّنا عندما نسقي ، نمدّ إليها كلّها العافية ، فهل هي شريعة عادلة تلك التي تُساوي بالعدالة بين الشوك والورد ؟

– ألشّوك والورد معاً يُكوّنان الوردة يا حبيبتي . لا ينفصل واحدهما عن الآخر ، ومتى زال الأوّل توجّب أن يزول الثاني .

– والأشواك العواسج يا أبي ، ماذا تقول فيها ؟

– لا أدافع عنها ، ولا أجد لبقائها أيّ نفع . كلُّ عوسج دخيل

يجب أن يزول من الحقيقة يا بُنيّتي .

ــ والطفيليّات الأخرى ، التي تضرّ ولا تنفع ؟

ــ كلّها عناصر دخيلة يا حلوتي . هي في حياة الناس ، كما هي في حياة الطبيعة ، شرّيرة مؤذية .

ــ وهذا عمل جديد يا أبي !

ــ أيّ عمل يا بُنيّتي ؟

ــ إقتلاع الطفيليّات من الحديقة حتى لا تشوّه الورود .

ــ وحتّى لا تعتدي على حقّها في الحيـاة يا حلوتي . أليس على الأمّ واجب حماية حقوق أولادها من اغتصاب الطامعين ؟

ــ وسور الحديقة من يقيمه ؟ أليس هذا من واجبات الأمّ كذلك يا أبي ؟ إذاً تظلّ الحديقة من غير سور .

ــ وماذا تُبقين لأبي البيت يا حلوتي ؟

ــ الأمّ تحرس البيت في الداخل وتُعنى بحياة الصغار ، والأب جهده يتعدّى الحديقة ، بعد أن يقيم الجدران العالية ، وميدانه هناك شائك رحيب .

ــ وهل هو مليء بالأشواك والطفيليّات الدخيلة ؟

ــ أكثر ممّا تتصوّرين يا حلوتي ...

ــ وهل تزحم جهاد الأب المحبّ أو تعيق مطامحه ؟

ــ ألنّضال من أجل دفعها لا يتوقّـف يا حبيبتي .

– لن تظلّ وحدك يا ابي .

– ماذا تعنين ؟ أأفهم أنك ...

– أجل ! لن تظلّ ابنتك داخل الجدران يا أبي .

أبعدُ مِن الحُروف

– أبي ... أَبي ... أسرع يا أبي .

– خير إن شاء الله ... ما بك يا بُنيّتي ؟

– ماما ... ماما !!. هل لك أن تعرف ماذا جرى لها ؟

– عمّا تتحدّثين ؟ إنّها بخير ... كتابها في يدها ، تطالع قصّة إنسانيّة شيّقة ...

– هي تبكي يا أبي ...

– تبكي ؟

– أجل ! شاهدت دموعها تنحدر وتسيل على خدّيها ... ومذ رأتني مسحت دموعها وأخفت وجهها ...

– وماذا فعلتِ ؟

– أسرعت إليك مستنجدة لإنقاذ أُمّي .

– أمّك بخير يا حبيبتي ... خفّفي عنك ... وتعالَيْ إليّ لتهدئي في أحضان أبيك .

– وماما ؟ أتتركها دون أن تسعى إليها ؟ ألا يَعنيك أن تعرف ما يُبكيها ؟

– أعرف كلّ شيء يا حلوتي ...

– ولا يستثيرك ما تعرف ؟ ولا يَستفزّك لتبعد الآلام عن أُمّي ؟

– من يستطيع أن يوقف المشاعر الإنسانيّة أو أن يَحدّ منها ؟

– عمّا تتحدّث يا أبي ؟

– عن أُمّك ، وعن الإنسانة الشابّة التي ضحّت بأغلى مشاعرها وأصدقها من أجل إسعاد غيرها ...

– ما هو هذا الذي تدير حكايته يا أبي ؟ أكاد لا أفهم شيئاً ممّا تقول !!

– ستفهمين يا حبيبتي . ستعرفين أنّ في هذه الحياة من المشاكل ما يُثير الدموع ويُبكي الصغار والكبار .

– ومن تكون تلك الفتاة التي أبكت أُمّي ؟

– ومن قال لك إنّها أبكتها ؟ هي لا تُبكي أحداً . الآخرون يسبّبون لها الآلام التي تستنزف الدموع .

– ولكنّ أُمّي بكت ...

– أجل يا بُنيّتي . من يُنكر ذلك ؟ بكت لبكاء الفتاة المعذّبة . أحزنها ما يحلّ بها من مكاره . أثارها أن يؤذيها أقربُ

الناس إليها ... أن تصاب بحبّها فتفقد حبيبها ، وأن تصاب بعينيها فتفقد البصر .

– أنا لا أعرف فتاة حلّ بها مثل ما تقول .

– هذا صحيح ! ولكنّ الوقت لن يطول حتى تعرفي أكثر من ذلك .

– ألا تخشى عليّ أن أعرف يا أبي ؟

– أبداً يا بُنيّتي ... سيفرحني أن تتفتّح إنسانيّتك على أروع المعاني والمشاعر .

– حتى ولو جرت دموعي ؟

– ألدموع الصادقة في التجاوب الإنسانيّ ، أمام المآسي البشريّة ، مطهر للنفس ، وجلاء للضمير ، وتدعيم للذّات . فهل يخشى الأب إذا ما تمّت هذه الولادة السعيدة في أعماق ابنته ؟

– أنت تحيّرني يا أبي !..

– ستزول كلّ حيرة عندما يتمادى بك العمر إلى المعرفة الحقيقيّة يا بُنيّتي .

– وهل سأعرف تلك الفتاة التي عرفتها أُمّي ؟

– وتعرفين غيرَها كذلك .

– ولكنّك لم تقل يا أبي أين عرفتها أُمّي حتى تأثرت لحالتها وشاركتها مشاعرها ؟

– ماذا كانت أمّك تفعل عندما بكت ؟

– تقرأ في كتاب .

– إذاً هناك عرفتها ...

– وهل يتّسع كتاب لفتاة يا أبي ؟ هه ... لم أجد فتاة منتصبة بين يديّ أمّي هناك ، في مقعدها

– كانت الفتاة في الكتاب حقاً يا بُنيّتي ... في الأسطر والكلمات ، في الشعور ، وفي المعنى ، وفي الأسلوب .

– أوه ... فهمت ... تعني ... أنّ أُمّي كانت تقرأ قصّة الفتاة في الكتاب ؟..

– يا للنباهة !! أعرفت الابنة الذكيّة واقع الأمر ؟

– ولكنّها قصّة في كتاب ... وهل تبكي أُمّي لقصّة في كتاب يا أبي ؟ ألم تقل لي مراراً إنّ القصص من نسج الخيال ؟.. وهل تبكي لما ينسجه الخيال ، ويحوك خيوطَه الوهمُ ؟

– خيال الأدباء الإنسانيّين يا ابنتي يظلّ ، مهما تمادى ، على صلة بالواقع ؛ يربط بين الأحلام والحقيقة ، ويمشي بمشاكل الناس خيطاً إثرَ خيط ، وجوّاً بعد جوّ ، وعالماً يلحق بآخر ؛ إنهم يستلهمون حياة الناس المُعاشة وينسجون من خيالهم أطُرَها وأشخاصها ... فأنت معهم في عوالم مختلفة إنما من غير أن تكون تلك العوالم بعيدة عن الواقع وحقيقة الوجود الذي نعيشه .

– وهل تعتقد أنّ هذا هو الذي أبكى أمّي وأثارها ؟

ـ وماذا غيره ؟

ـ ألا يجوز أن يكون ما قرأته هو الذي حرّك مشاعرها عمّا في حياة الناس ، فبكت أشياء محسوسة تعرفها ، ووقائع معيّنة وقفت عليها ؟!

ـ ألم أحدّثك ، منذ لحظات ، عن دور الأدب الإنسانيّ وصلته بالحقيقة والواقع ؟!

ـ وأشياء غير هذه تُنبّهني إلى موقف أُمّي يا أبي .

ـ ما هي ؟

ـ ألا يجوز أن تكون أُمّي تعاني آلاماً ذاتيّة ؟

ـ عجيب ! ما الذي أوحى إليكِ بهذه الخواطر ؟

ـ أنتَ يا أبي .

ـ متى ؟ لا أذكر شيئاً ممّا تقولين .

ـ أنسيت كلامك لي عندما بكت جدّتي ؟

ـ ربّما . ألك أن تُذكّريني أكثر ؟

ـ ألم تقل لي آنذاك : اسمعي يا صغيرتي ؟ رأت جدّتك هذا المشهد على الشاشة الناطقة ، فرأت نفسها فيه فبكت . وكان ما رأته مشهد شيخ هرم يعاني عذاب الشيخوخة وآلامها ...

ـ ولكنّ هذا ليس هو واقع أُمّك يا حلوتي .

ـ الأحزان تثير الأحزان يا أبي . ومُحال أن يوقظ حزنٌ

فرحاً على مصيبة . لو كانت أُمّي فرحة سعيدة لما بكت يا أبي .

– وهل تجرّدين الفرحين السعداء من الحسّ الإنسانيّ يا بُنيّتي ؟ أتفترضين في أُمّك الأنانيّة حتى لا تتألم إلّا أمام مشاكل نفسها ، وإذا ما فرحت أو انتشت صرفها ذلك عمّا يدور حواليها من مآسٍ ، وعمّا يعصف بالإنسانيّة من أهوال ؟.. أُمّك إنسانة قبل كلّ شيء يا إنسانتي .

– عفوك يا أبي . فقد طغى حبّي أمّي عليّ . إذاً أنت متأكد أنّها مع الفرحة تبكي ... وأنّ ذلك لن يطول ؟.

– وما ضرّ لو يطول ؟

– أتريد بكاء أمّي يطول يا أبي ؟

– بكاؤها لن يطول يا حبيبتي . لقد انقطع مذ أغلقت الكتاب . أو مذ انصرفت عن المشهد . ولكنْ كما إنّ فرحتها لم تنقطع عندما بدأت تبكي ، فإنّ مشاركتها الإنسانيّة لم تنقطع مذ توقّفت عن البكاء . وهذا الذي يعني أباك .

– أبي . أبي . أريد كتاباً للمطالعة .

– وهل أنت تجيدين القراءة يا بُنيّتي ؟

– ومتى كنت تشكّ بقدرة ابنتك في قراءة الحروف ؟

– قراءة الحروف لا تكفي . هي لا تعني شيئاً ... أودّك تقرئين غير الحروف يا نشوة أبيك .

– أنت تبعث فيّ الحيرة من جديد . ماذا تريدني أقرأ يا ترى ؟

ـ أفي النجوم أم في الغيب ، أم في الكفّ يا أبي ؟

ـ ألحروف جوفاء إذا لم نعطها من نفوسنا المعاني ، والروح لتصبح مخلوقات حيّة تتنفّس وتمشي وتؤكّد وجوداً. وإذا ما قرأنا فلنقرأ القيمة والجوهر من غير أن نكتفي بالمظهر والشكل يا حبيبتي .

ـ أبي ، أبي ... بدأت أقرأك ...

ـ وهل أنا حروف لتقرئيني يا بُنيّتي ؟!

ـ أنت مخلوق حيّ يتنفّس ويمشي ويؤكّد وجوده .. وأنا سعيدة أن أقرأه وأرتوي .

ـ وللقراءة الأخرى ، أيّة كتب تفضّلين ؟.. دعي أباك الآن ، ففي الحياة ما هو أعمق وأنفع ...

ـ هل لك أن تُرشدني يا أبي ؟..

ـ أقرأت كتابَ الحياة بعدُ يا بُنيّتي ؟.. إليك هو ... إقرئيه حرفاً حرفاً ، وصفحة صفحة ، من الدَفّة إلى الدفّة ... فهو سخيّ غنيّ ... وبعد ، أتعرفين ماذا تفعلين يا حلوتي ؟..

ـ ماذا أفعل يا أبي ؟..

ـ إذهبي بعد ذلك إلى أمّك ، واسأليها عن الكتاب الآخر ، فلديها الخبر اليقين .

وَردٌ بِلا شَوك

– أريد ضمامة من ورد يا أبي... جميلة كالربيع ، عطرةً كرائحة بيوت العرائس ، زاهيةً كعيون بنات البحر ...

– يا للشاعرة الصغيرة ! من أين لك هذا السحر في العبارة ، وهذا الشرود في الخيال ؟!

– ألم ترَ ضمامة وردٍ كهذه ، من قبلُ ، يا أبي ؟ ألم يستهوِكَ المشهدُ الفاتن ، ويستثرك العبيرُ الساحر ؟

– أنت عجيبة اليومَ يا بُنيّتي . متى كانت الصغيرة الحلوة أكبرَ من عمرها ؟.. من حدّثك عن الورود لِيُنبّه البرعم على الضُمامة المتفتّحة ؟

– ليتك تُشاهدها مثلي يا أبي !.

– عمّا تتحدّثين يا صغيرتي ؟

– عن الورود ...

– في الحديقة ورود كثيرة يا بنيّتي .

– لا أريد وروداً من حديقة . ألورود التي يزرعها الإنسان أقلّ رونقاً وبهجة من الورود التي رأيتها !

– ومن يزرع الورود إن لم يزرعها الإنسان يا صغيرتي ؟ ألا تعجبك ورود حديقتنا وقد زرعها والدك بيديه ؟!

– ولكنّك زرعت الشوك في الورد ... أريد وروداً بلا شوك يا أبي ... أأنت قادر على هذا ؟

– أرأيتِ ورداً بلا شوك ؟ متى كانت الورود بلا حراسة يا حبيبتي ؟

– هي أشواك للوخز والأذيّة ... أتسمّي السلاح الجارح ،تسيل معه الدماء ، سلاحاً للحراسة ؟!

– هو حارس الجمال ، حارس العبير والرونق ... أتريدين الفتنة بلا وقاية ؟ ألا تخافين عليها من أصابع الشرّ يا حبيبتي ؟

– ألجمال لا يحتاج إلى حماية يا أبي ... وممّ تحميه ؟ أمن النظر ؟ ومن سرّ بقائه أن يظلّ مشاعاً ! أم من الندى ، وهو الذي ينعشه ؟ أم من قبلات المحبّين ، وقد قال الشاعر إنّ تلك القبلات هي التي نثرت الجمال في الوجنات المشرقة بألف لون ولون ؟.. أم من النسمات وهي التي تفتّح براعمه ؟!

– أيّ شاعر قال هذا ؟ أقَفَزَ العمرُ بالصغيرة النامية إلى عالم الشعراء ، وهي ، بعدُ ، في البواكير المطالع ؟!

– في كتاب القراءة يا أبي قصيدةُ ورد ... ضمامةُ سحر

بهرتْ نفوسَنا ، وشعرنا معها بالراحة العجيبة ...

ـ ماذا تقولين ؟ قصيدة ورد ؟

ـ هذا ما قالته المعلِّمة ... وكانت وروداً بلا شوك ...

ـ وبلا عطر يا صغيرتي ...

ـ أبداً يا أبي ... صدّقني ... منذ أن تناثرت الحروف في غرفة الدرس ، انتشر العبير وترامى إلى النفوس الصغيرة ...

ـ تريدين أن تقولي إلى الأنوف الصغيرة ...

ـ لم نشعرْ أنّها مرّت بأنوفنا يا أبي ... تسلّلتْ إلى نفوسنا فتحرّكتْ على بهجة زاهية ... وها نحن نُحِسّ وكأنّنا في ربيع دائم ...

ـ ألسّحر ؟ والبهجة ؟ والربيع الدائم ؟ كلّها حكايات جديدة لم تحدّثني الابنة الحلوة بها من قبل ...

ـ وهل تظلّ الصغيرةُ صغيرةً يا أبي ؟.. أنظر إليّ ، ها أنا أكاد أصل إلى كتفك ... ستنظر ذات يوم فتراني قد كبرتُ ، ووازت قامتي قامتك ...

ـ وهل تريدين أن تكبري يا بُنيّتي ؟!

ـ ولمَ لا ؟!

ـ وهكذا سريعاً ؟ ألستِ راضيةً بعالمِ الصغار ؟ إنّ عالمك لا مثيلَ له يا حبيبتي .

ـ سئمت سذاجة الطفولة يا أبي .

ـ نحن الكبار نتمنّى أن تكون لنا مثل براءة الصغار يا حبيبتي ، وطهارة عوالمهم الساذجة ... سئمتْ نفوسُنا هذا الجدّ العابس ، يلفّ أيّامنا ، ويلفّ دروبنا ...

ـ ولكنّكم تفعلون ما تشاؤون ... لكم حياتكم الحرّة الطليقة ... وتتمتّعون بما تطمع إليه نفوسكم ...

ـ حرّيتنا مُقيّدة يا عزيزتي ، ومتعتنا ... أرأيت إلى النفوس المقيّدة بسلاسل المتعة ؟ إنّنا في سجن من نزواتنا ومسؤوليّاتنا .. لا تخدعنّكِ ظواهرُنا الزائفة ، أيّتها المخلوقة البريئة !..

ـ أأنت تشكو يا أبي ؟.. ألا تعجبك الحياة التي تعيشها ؟ أأنتَ متعَب إلى هذا الحدّ ؟ لقد أثرتَ قلقي عليك .

ـ عفوك يا حبيبتي ... ما قصدت أن أشكو ... أو أن أثيرك ... غلبني خوفي عليك من حياة الكبار يا حلوتي !

ـ وهل في حياة الكبار ما يُخيف ؟

ـ أريدك تعيشين الفرحة كاملةً ... تمرحين ، بلا أعباء ، وتملئ رئتاك بالهواء النقيّ ، ولا مسؤوليّة تُثقِلُكِ ، وتتمتعين بالسنوات الأبكار ، فإنّ مثلها لن يعود ...

ـ إذاً تريدني أظلّ صغيرة ... طفلة ... ألا تحبّني أكبر ؟

ـ أحببتك طفلة ... وأحببتك تكبرين ... وإنما يُفرحني أن لا تسرع بك السنون ، فيتمادى بك الوعي المبكر ...

– ولِمَ نتعلّم يا أبي ؟.. ألسنا نهدف إلى أن تنمو مداركنا وتتكامل ؟

– ألوعي المبكر يؤذي الشباب النضِر ويُذويه يا شابتي ... والتعلّم هو غير التشوّق إلى حياة الكبار ...

– مللتُ ثياب الصغار يا أبي ... مللت جدائلهم المرسَلة ... مللت مظهر بنات المدارس ...

– كم أنت رائعة بهذه الثياب وبهذه الجدائل يا بُنيّتي !.. كم أحبّك بها ...

– إذاً أنت تحبّ مظهري ولا تُحبّني يا أبي ...

– وأنت يا صغيرتي ، أتـُحبّينني ؟

– كثيراً ... ولِمَ هذا السؤال الآن ؟

– وهل تحبّين الورود ؟

– أيّة ورود ؟.. آه ... كدت أنسى حكايتها ! أجل أحبّها ...

– ومن غير أشواك ، أليس كذلك ؟

– ومن غير أشواك ، تماماً كتلك الورود العطرة الزاهية ...

– تلك ورود الشّعر يا حبيبتي... وورود الصغار الذين يكبرون... ولا يجوز أن يكبروا ...

– لا أدرك ما تعني يا أبي ...

– عوالم الشّعر يا بُنيّتي عجيبة مسحورة... والشعراء كبار صغار: أحلامهم أوهامُ خيال، وورودهم بلا شوك ...

– ودنيا الكبار يا أبي؟

– خيالهم واقع، وأحلامُهم حقيقة ...

– وورودهم يا أبي ... أهي فاتنة عطرة؟

– هي كذلك يا حبيبتي.

– إذاً هي كورود الشعراء ... أنت قادر على أن تُهديني ضمامة منها ...

– ليست هي مثلها تماماً يا عزيزتي ...

– أهي ورود بشوك؟

– نعم يا بُنيّتي ... ولكنّني قادر على أن أهديك واحدة ...

– ألا تخاف على يديّ من الأذيّة؟

– لن تكون مؤذية ... ألآباء يستبقون الأشواك، ويُقدّمون الورود بلا شوك ...

– ولمن يستبقونها يا أبي؟..

– للكبار يستبقونها يا حبيبتي ... لتكون بعيدة عن أنامل الصغار ... وعن نفوسهم.

– وهل يؤذى بها الكبارُ؟ هل تجرحُهم وتُسيلُ دماءهم؟

– ألكبار لا يخافون الأذيّة على نفوسهم ياحبيبتي ... ألشّوك

حافز الظـّفَر ... أيّ حصاد يكون من غير جهد وعرقِ عافية ؟؟

ـ هذا لا يعني أنـّكم لا تتألـمون !

ـ ألمُ الوخز حافِز الهمّــة إلى التمرُّد ، والصمود ، وفـَرْضِ المطمح القادر .

ـ ولِمَ تـُريدني لا أكبر يا أبي ؟ لِمَ تودّ أن تحرِمَني نعمة هذا التمرُّد ؟

ـ أنتِ أردت ذلك يا َصبيتي الصغيرة... ألم تطلبي منـّي وروداً بلا شوك ؟ وعُشّاق الورود في الشّعر لا يتمرّدون يا حبيبتي !!

ـ أتوحي إليّ بأنْ أتمرَّد على الملـّمة ، فلا أستظهر قصائد الورود التي تمشي لنا بها ضُمامة إثر ضُمامة ؟!

ـ أبداً يا حبيبتي ... ما عنيت هــذا ... وأُريدك أن تشمّيها وردة بعد وردة ... أُحبّها تتسلـّل إلى نفسك وتـنعشُها ... ولكنّني خشيت شيئاً ...

ـ وما هو يا أبي ؟

ـ خشيت أن لا تقدر ورودك على مواجهة العاصفة ...

ـ حتى ولو كانت بشوك ، هي غير قادره ، يا أبي ؟

ـ ما لنا ولحديث الشوك . لن تظلـّي بعمر الورود يا صغيرتي ، ولا بطراوة جِذعها وأغصانهـا ... سيقسو عودك ، وستتمرّدين على الأذيّة الواخزة ...

ـ إذاً ساكبر ... سألبس ثيـاب الكبار . . وستكون لي

حريّة العيش كما يعيشون... سأنزع عنّي هذه المريلة القاتمة... ستكون ثيابي بألف لون ولون ...

– من يكفل ذلك يا ...

– ماذا تقول يا أبي ؟.. ألن يكون لي ما أتمنّاه ؟.. ألن تتحقّق أحلامي ؟..

– لم أقلْ شيئاً يا حبيبتي ... عفوك من زلّة اللسان ... أمنيّتي الكبيرة أن تتحقّق آمالك كلّها يا حلوتي ... ولكن ...

– ولكن ماذا يا أبي ؟..

– ظلّي في عالم الصغار إلى أن تكبري ... تمتّعي بالأحضان الدافئة ... دعي الورود البراعم عقوداً في عنقك ، وعند منعقد الجدائل الذهبيّة ...

– ولكنّني، إذا كبرت ، حملتُ عنكَ يا أبي ... وقاسمتُك بعضَ ما يحزُنك ويؤذيك ...

– وثياب الكبار يا حبيبتي ؟.. ومتَعُ الحياة ولذائذها ؟! ماذا يحدث للحلوة الكبيرة إذا أعطت ولم تأخذ ؟!.

– وهل يُعطي الكبار ولا يأخذون ؟

– كثيراً ما يحدث هذا يا عزيزتي .

– وأنا يا أبي ... أراني آخذ من غير أن أعطي !.

– هذا ، لإنّكِ ما تزالين في عمر الورود ...

لِمَن الجَمال ؟

– لمن الجمال يا أبي ؟

– ألجمال لمن يتعشّقه ويهواه ... ولمن يريده .

– والأزهار والورود ... والأشجار الظليلة ؟..

– هي كالقمر والشمس والسماء والأرض والماء والهواء ، مُشاع بين البشر ، ورزق يتقاسمه المعجَبون المتذوّقون .

– ولكنّني ألمح سياجاً ، وجداراً عالياً ، وأبواباً مغلقة .

– وهل يقف أمام النظر مانع ؟ هل يردّ البصرَ الساعي إلى الجمال سورٌ لحديقة ، أو قدرةٌ لحارس ؟

– إستراق المتعة واغتصابها ، غير إقبالك عليها وهي بين يديك تنتشين بها على هَونك وعلى حرّيتك ...

– ألنّشوة الهيّنة ضياء خادع ، ينتهي إليك وسرعان ما يتبدّد ... والمجاهَدة للوصول فرحة ترفع من قيمة إقبالك على الجمال ومن انتشائك به .

– ولكنّ للنظر متعته ، وللحواسّ الأخرى متعتها . يؤنسك المشهد يواجهك ، ولكنّك تظلُّ في شوق إلى التملّي منه والتمتّع بخفاياه جميعها ...

– وبعد ؟ تنتهي المتعة ويختفي أثر الإحساس بالجمال . ولقد أخذتِه بحواسّكِ كلّها ، واتّصلتِ بألوانه وأشكاله جميعها ... وفاتك السرّ الكامن في الأشياء الجميلة .

– وما هو هذا السرّ الكامن يا أبي ؟

– ذلك الغموض المستعصي على الإدراك يا حبيبتي .

– لم أُدرك ما ترمي إليه .

– أتتأمّلين في الحديقة ؟ أنظري جيّداً. هذه وردة متفتّحة ، وهذا برعمُ ورد ... أيّهما أبعثُ للمتعة في نفسك ؟

– هنا الجمال الذي تفتّح وباح بعطره وشكله ... وهناك الجمال الذي لم يبُح بعد بأيّ سرّ من أسرار روعته...فأنت تنتظر وتتكهّن، من غير أن تجزم أو تتأكّد .

– هنا حقيقة المتعة . أجمال المكشوف، الجمال المشاع ، يُشبع منك النظر ولكنّه لا يثير تشوّقك إلى إدراك الفتنة في ما وراء اللون والشكل والعبير ، الفتنة المنطوية وراء تلافيف البرعم .

– ولكنّهم يُقيمون الأسوار ويقيمون الحراسة ، لا لبعث الشوق في نفسك إلى الجمال . إنّهم يحتكرون الجمال ويستأثرون به ، ويمنعونه عن المتذوّقين المقدّرين .

– وهل يفعلون ذلك حرصاً على الجمال وحماية له ؟

– ما قدّروا الجمال ولا فهموه يا أبي . حسبوه متعة من المتع ، ولذّة من اللذائذ ، وعقاراً يضيفونه إلى العقارات التي يمتلكون .

– ولكنّهم لا يتركون تلك الأرضَ جرداء قاحلة ... يُنبتون فيها اللون والعبير ؛ ولعلّ هذا يشير إلى عناية خاصّة بالبهجة والروعة .

– لو سألتَ الطاووس لأجابك يا أبي !

– ماذا تقولين ؟ ألطّاووس؟ وما مناسبة حديثه ؟ وعمّا تريدينني أسأله ؟

– عن ثوبه المنقّط بكلّ لون جميل ... لماذا يتباهى به وينتفش ناشراً ألوانه كلّما مرّ به زائر ؟

– وبمَ تنتظرينه يجيب ؟

– أسمعه يقول : أريد ألواني الجميلة الزاهية لتزيد من كبريائي وتضاعف غروري ، وتجعلني أنتفش وأنتفخ ، وأمشي مرحاً ...

– إذاً أنت تظنّين الناس يتبهرجون ويتزيّنون ، ويُنبتون الجمال في الطبيعة ، ليزيدوا من مفاخرتهم ومباهاتهم ، وكبريائهم الفارغ ؟!

– أكثر الناس هم كذلك يا أبي . ألم تمشِ بي إلى مثل هذه الحقائق من قبل ؟

– بلى يا حبيبتي . ولكنّني ما قدّرتُ أنّها استقرّت في نفسك هكذا سريعاً .

ـ هناك ما هو أعجب وأغرب يا أبي ، يستثير خواطري ويحرّكها على سؤال جديد .

ـ وما هو يا حبيبتي ؟

ـ هل لي أن أعرف كيف يُبيح هؤلاء لأنفسهم حجب اللقمة ، والمحبّة ، ووسائل العون ، عن إخوانهم البشر ؟

ـ لا أذكر أنّني حدّثت ابنتي بهذا . مـــا يزال العود الطريء عاجزاً عن الصمود أمام الحقائق كاملة .

ـ صدّقني يا أبي ، لم يُحدّثني أحدٌ بذلك . ولكنّها الحقيقة . من يحجب الحقيقة ، طويلاً ، حتى عن الصغار ؟

ـ وكيف اهتدت إليها صغيرتي ؟

ـ لم أبقَ صغيرة يا أبي . كثيراً ما أسمع وأقرأ ، ولا يفوتُني أن أفكّر وأتأمّل ، وقبل أن أنتهي إلى قرار جازم أسعى إلى الأبوّة الواعية لأجدَ عندها الخبر اليقين .

ـ وما الذي أثارك لتفكّري وتتأمّلي وتسعَيْ بالسؤال ؟

ـ الأبواب العالية مغلَقة عن غـــير طالبي الجهال ... وكذلك الأسيِجة والجدران محكمة عالية ...

ـ لتردّ الطامعين والسارقين والعابثين بالأمن !

ـ رأيتها تردّ جائعاً إلى لقمة يا أبي ...

ـ ماذا ؟

ـ وجائعاً إلى مأوى وثوب ، فهو مشرّد ُعريان ...

– أصحيح هذا كلّه يا حبيبتي ؟

– وجائعاً إلى دواء يا أبي ... فقد كان مريضـــاً محطـّماً ... لم تحمله قدماه فتهاوى أمـــام الباب المغلق ، والسور الذي لم يصلـْه بصرُه الكسير .

– وماذا حدث بعد ذلك ؟

– وقعت الفاجعة المرعبة ... تماماً كما تُحمل الأقذار النتنة ... بأطراف الأصابع ، وفي سيل من النـّقَم والشتائم أُلقي به بعيداً عن تدنيس الجمال . جمال القصر ، وجمال الحديقة ...

– كان ذلك تصرّفاً من الخدم ... ألستُ على حقّ ؟

– لم تـُصب الحقيقة هذه المرّة ... كان ذلك بأمر من الطاووس ، عفواً ، بأمر من الطـّواويس يا أبي !!.

– أوه ... أعرف أكثر من ذلك ...

– ماذا تتمتم يا أبي ؟!.

– لا شيء ... لا شيء يا بُنيّتي ... ما لك وهـــذه المشاهد المثيرة !؟.

– ألأنت تتضايق أيضاً من هذه المشاهد ؟

– أخاف على نفسك أن تمتلىء بالضباب الحزين ؛ فالحقيقـــة أليمة مرّة .

– وكم سيطول هروبي من الحقيقة يا أبي ؟ وتعرّفي إليهـــا ، ألن يكون أقسى عليّ لو فوجئت بهـــا وحيدةً ، وأنت لست معي ؟

– أتريدين أن تتسلّحي بما يقوّي شخصيّتك يا بُنيّتي ؟ أتريدين سلاحاً لمواجهة الحقائق ؟ ألعاطفة وحدَها لا تكفي .

– ستنصحني إذاً بالعقل والرويّة ؟!

– أنْصَحُكِ بالعدالة يا ُبنيّتي . تسلّحي بها ... هي عونك على فهم الأمور وتقديرها والحكم عليها .

– وهل في الأمور أيّ شكّ لنحتاج العدالة يا أبي ؟ لتحكم بالعدل يجب أن تفترض مشكلة صعبة معقّدة . ألأمر أبسط ممّا تتصوّر . لعلّك تريد أن تنفي التّهمة عن الطواويس ...

– أنا لا أنفي شيئاً ...

– أو أن نضع المسؤوليّة على الجائعين المحرومين .

– بعض المسؤوليّة ...

– ماذا تقول ؟.. أيموتون من الحرمان وقسوة الظالمين ويكونون مسؤولين ؟.. أنت تقسو يا أبي !

– بمقدورهم أن لا يكونوا كذلك . ألحقّ لا ُيعطى ، الحقّ يُؤخذ يا إنسانة أبيك .

– أتمشي الهياكل العظميّة إلى ساحة المعركة ؟.. أو الشرايين التي لا حياة فيها ؟ وكيف تقدر على الكفاح ، وهي غير قادرة على أن تشبع أو ترتوي ؟

– ماذا تنتظرين من الظالم ؟ أأقلّ من أن يكون ظالماً ؟ أينقلب الحقّ باطلاً ، وهكذا بسحر ساحر ؟!

– ولكنّك تنتظر معجزة تحدث !

– أنتظرها من الناس ولا أنتظرها من السَّحَرة يا حلوتي . أصحاب الحقّ هم الذين يردّون ما ضيّعوا ويرفعون ما وضعوا . ألك رأي آخر ؟

– لا أظنّ يا أبي ... ولكن ، هل لي أن أسألك السؤال الأخير ؟ ..

– أنا أودّ أن أسأل هذه المرّة يا حلوتي .

– وما عساك تسأل يا أبي ؟

– عن الجمال . ألم تبدئي بسؤالك لي : لمن يكون الجمال يا أبي ؟.. وهل تذكرين الجواب ؟

– أجل يا أبي . لقد قلت لي : ألجمال لمن يتعشّقه ويهواه ، ولمن يريده .

– صحيح ... يا لك من ذكيّة !.. حرفاً حرفاً ... والآن ، ماذا تنتظرين أن أجيبك لو سألت : لمن يكون الحقّ يا أبي ؟..

– أنتظر الجواب نفسه يا أبي : ألحقّ لمن يتعشّقه ويهواه ، لمن يريده ...

عِنـدَمَا يَعُودُ الغَـائِب

– أما زلتَ يا أبتاه في فِراشك؟.. صاح الديك وأشرقت الشمس. لم تـُعوِّدْنا قبلَ اليومِ هذا الاسترخاءَ الكسول ...

–....

– أين أنت يا أبي ؟.. ألا تسمعُني ؟ قهوتـُك تناديك ، أتريدُها تبردُ أمام كرسيّك على الشرفة ؟

–....

– أوه . سأدخل غـُرفتَك عليك . وسأُخرجـُـك من فراشِك . أأدخل وحدي أم أدعو أُختيَّ ؟! أأستمين بهما عليك ؟!

– أدخلي يا صغيرتي ...

– ماذا ، صوتك ؟. لقد استيقظتَ إذاً ! أنت تدعوني لأدخل . هيَّا استعدَّ ... ها أنا داخلة ...

– أهلا حبيبتي ...

– ولكن ... أين أنت ؟. لا أرى وجهَك !. أمـــا زلت تريدُ أن تنام ؟

– أبداً يا صغيرتي ...

– ولِمَ تخبّىء وجهَك عـنّي ؟ دعني أرفع الغطاء عنه !

– تمهّلي يا صديقتي الصغيرة ... تمهّلي ...

– ولماذا أتمهّل ؟. لا! لا يا أبي ... ها أنا أرفعُ الغِطاء .

– ألا تنتظرين يا صغيرتي ؟..

– أنتظر ماذا ؟. أريد أن أرى ... وجهَك ...

– ليكن لكِ ما تريدين ... هذا هو ... أترينْه ؟.

– هه ... كم أنا سعيدة . دعني أقبّلك . ولكن ...

– ولكن ماذا يا حبيبتي ؟

– وجهُك مبلّـلٌ يا أبي ...

– أجل ، يا ...

– وشفتاك تشتعلان ...

– عفوك يا حلوتي ... ما قصدت إيذاءك أبداً...

– أهذه دموعُك ... تُحرقني ؟.

– سامحيني يا صغيرتي ...

– ألأنت تبكي إذاً ؟!

– صغيرتي ...

– ولمَ تبكي يا أبي ؟!

– بُنيّتي الغالية ...

– لم أُشاهدْ رجلاً من قبلُ يبكي . فهل يبكي الرجالُ يا أبي ؟!

– ماذا تقولين ؟ ألرّجال ...

– ألستَ رجلاً ؟!

– ربّما ... بلى ... يا صغيرتي ...

– أنت تبكي . وأنا صغيرتُك لا أبكي ؟!

– كم أنا سعيدٌ أن لا تبكي يا حلوتي ... عــار على الصغار أن يبكوا .

– ولكنّك تبكي يا أبي .

– أنا عنيت الصغار يا حبيبتي ...

– أيبكي الكبار ولا يبكي الصغار ؟

– أليس جميلاً أن يَفدي الكبارُ الصغارَ يا صغيرتي ؟..

– لم أفهم يا أبي .

– أأحرقتكِ دموعي يا حبيبتي ؟

– أجل يا أبتي . وما تزال شفتاي تلتهبان بها .

– وهل أحرقتكِ ذات يوم دموعُ الصغار ؟

– أبداً . دموعُ الصغار هيّنــة ليّنة ... تنبعِثُ فتُريح ، وأمسحها فتختفي ...

ـ أفهمتِ الفداءَ الآن يا حلوتي ؟

ـ أيّ فِداءٍ تعني ؟

ـ فداءَ الكبار للصغار .

ـ ما أزال أجهلُ يا أبي .

ـ تضحية الكبار حتى ولو أحرقتهم الدموع ...

ـ هُمْ ؟.. ماذا ؟

ـ تضحية الكبار لتظلَّ دموعُ الصغار لا تحرق ...

ـ هل أفهمُ أنّنا نحنُ مصدرُ عذابك ؟!

ـ أبداً يا عزيزتي ...

ـ أنتَ مِن أمسِ تبكي .

ـ ألاحظتِ ذلك يا حبيبتي ؟

ـ ألم توقظْ دائماً ذِهني على الملاحظَة ؟

ـ أنتِ رائعة يا حلوتي ... ولكنّ هذا سيكونُ مصدَر عذاب لك يا غاليتي !

ـ ولِمَ العذابُ ؟..

ـ سينبّه حسّك على ما حواليك ...

ـ وأيُّ شرّ في هذا ؟

ـ سيزيد في مشاعرك ...

ـ وايْ غَبَنْن ؟

ـ ستكونين مهيّأة الأعصاب للانفعال السريع ...

ـ وهل تريدني بليدةَ الحِسّ عديمةَ المشاعر يا أبي ؟

ـ أبداً ... وإنما ...

ـ وقد لاحظتُ شيئاً آخرَ ... أتعرِفُ ما هو ؟

ـ ما هو ؟

ـ كانت جدّتي تبكي أيضاً . حاولتْ جاهدةً أن تُبعِدَ وجهها عنّي . فهل كانت تخاف أن ألحَظَ دموعها ؟ وهل تُخيفُ الدموعُ يا أبتاه ؟!

ـ لا ... يا حبيبتي ... وهل حدث ذلك كلّه أمس ؟.

ـ أجل يا أبتــاه . آه ما أجمل ذلك النهار ! كانت المرّةَ الأولى التي أرى فيهــا طائرةً من قُرب . ألطّائرة على الأرض أكبرُ بكثير منها وهي تطيرُ في الجوّ ... وطائرة عمّي أكبر من أيّةِ طائرةٍ رأيتُها في حياتي ...

ـ إنّها ليستْ طائرته يا عزيزتي ...

ـ ولكنّه ركِبَ فيها . أُريد طائرةً يا أبي .

ـ عندكِ طائرة ...

ـ وإنما لا أستطيعُ أن أركبَ فيها . وهي لا تطير !

ـ أتريدين أن تطيري يا حبيبتي ..؟

ـ ولِمَ لا ؟ ألم يطِر عمّي ؟

ـ أتـُريدين دموعي تتساقط من جديد ؟

ـ وهل تساقطتْ دموعك لأنّ عمّي طار ؟ وأيُّ خطر في أن يطير ؟. أتخشى أن تتحطـّمَ طائرتـُه ؟. والطائرة الكبيرة يا أبتاه ، أتتحطـّم كما تتحطـّم الطائرة الصغيرة ، طائرةُ الأطفال ؟!

ـ نعم يا حبيبتي ... ولكنّها لا تتحطـّم وحدها ... طائرة الصغار فارغة ...

ـ وهل عمّي في خطر ؟

ـ لا ... يا صغيرتي ... لقد وصل بالسلامة ...

ـ إلى أين وصل ؟

ـ إلى البلاد البعيدة ...

ـ ألهذا تبكيان ، جدّتي وأنت ؟ أفي البلادِ البعيدةِ ما يهدّده ، ما يؤذيه ؟.

ـ من يدري ..؟

ـ وهل فيها من يُحبّه كما نُحبّه ، كما تُحبُّه جدّتي ؟ هل فيها من يحنو عليه ؟.. ويمسحُ بالرفق العاطِف جبينَه ؟

ـ ...

ـ مَنْ يطعمه ، مَنْ يمهّد فراشه ؟.. من يحـــدو له ويربّت كتفه حتى ينام ؟.

ـ ....

ـ ولِمَ لا تجيب يا أبي ؟.. أيؤلمُكَ حديثي ؟..

ـ أبداً يا صغيرتي ...

ـ إذاً أنت تبكي . أشعرُ بصوتِك يتقطّع ... يخنقهُ البُكاء ...

ـ وبمَ تريدين أن أُجيب يا عزيزتي ؟..

ـ سألتُكَ عن عمّي .

ـ عمُّك وراء البحار والصحارى ...

ـ ولماذا يجدُّ هكذا بعيداً عنّا ؟ هل أغضبه أحدٌ ؟

ـ ومن يُغضب العزيز الغـــالي ؟.. كان فرحةَ البيت ومحطّ الآمال ونشوةَ لِكلّ عمر .

ـ إذاً مضى إلى من يحبّه أكثرَ منّا . أكثرَ منـــك ومن جدّتي ؟ !

ـ لا يا حبيبتي . لن يجد من يُحبّه أكثر ممّا نحبّه .

ـ وهل يهجرُ المحبّ ؟ هل يطيرُ إلى ما وراء البعيد البعيد ؟!

ـ هو على موعد هناك ... زيّن السَّحَرة له لُقيا عجيبة غريبة . قال له المَرَدة من أبناء الجنّ إنّ عقود اللآلىء والذهب والفضّة لن تُلقى إلّا بين يديه ...

ـ ومن صوّر له ذلك يا أبي ؟

ـ شيطانة ساحرة خدعته ... لوّحت له بالسّراب الخادع فانطلق

خِفُّ الجناحين إلى الموعد الأمنيّة .

– إذاً هو لن يجدَ لا فِضّةً ولا ذهباً ... ولا لآلىء ؟

– ربما يجد يا صغيرتي .. ولكنّه سيدفع ثمن ما يجد ...

– وهل يُشرى الذهبُ والفضّة واللآلىء يا أبي ؟

– وأيُّ مطمع بلا ثمن يا عزيزتي ؟

– إذاً هو سيشتري ؟.

– أجل يا حبيبتي ... وسيشتري غالياً !!

– وهل هو قادر على أن يشتريَ ، وبالثمن الباهظ كما تقول ؟

– لِمْ تسأليني يا صغيرتي ، متى سيعود عمّك ؟

– وأنت لم تجبني يا أبي !

– إسأليني أوّلاً ...

– ها أنا أسألُك

– سيعود عمُّك يوم لا تكونين صغيرة يا صغيرتي ... سيعود يوم لا تكون جدّتك !

– وهل تستقبله بمفردِك يا أبي ؟.

– ربما يكون أبوك ساعتئذ، وربما لا يكون !

– والبيت .. ألا يعودُ إلى سريرِهِ فيه ؟ إلى كرسيّه من الشّرفة ؟ إلى غليونه الذي ما يزال عند المَدخنة ؟ إلى السنديانة في مدخل الحديقة حيث يحبّ أن يلهوَ مع أترابِه ؟!

ـ ألم أقل لك إنّه سيدفع غالياً ؟! سوف لن يجدَ يا حبيبتي نول الحرير وقــد أكله الغبار في الزاوية ؛ ولن يجد بيادر البرَكة وقـــد تركتها زنود العافيــة ؛ وعناقيد العنب في الدالية لن تُفيِّتَه فوق المصطبة ولن تطعمه ... لن يتعرّف إلى شيء ... لأنه لن يجد شيئاً .

ـ بلى ... يا أبي. سأكونُ هناك وسأستقبلُه ...

ـ ربما ... ولكنّه ، آنذاك ، لن يعرفك يا حبيبتي .

مع المستقبل

– أتدري ماذا حدث أمس في المدرسة يا أبي ؟

– وماذا حدث يا بُنيّتي ؟

– نبّهت المعلّمة رفيقتي أن لا تلتفت وراءها... ولكنّها استمرّت تلتفت ... فوبّختها وألحقتْ بها قِصاصاً شديداً ...

– حسناً فعلت...

– وأيّ ضرر في أن يتلفّت الإنسان إلى وراء يا أبي ؟

– يُخشى أن يأخذ العنق الصغير عادة الالتفات المتواصل إلى الصفوف الخلفيّة .

– في الصفوف المتأخّرة رفقاء لنا أعزّاء ...

– وفي الصفوف المتقدّمة يا صغيرتي ؟

– رفقاء أعزّاءُ أيضاً ... وعواطفنا مترجّحة هنا وهناك ... أمحظور علينا أن نتبادل التطلّع مع رفقائنا يا أبي ؟

– لم يقصد أحد ذلك يا حبيبتي .

– ولماذا مُنعت رفيقتي ووُبِّخت ؟

– حرصت المعلّمة أن تحفظ عنق رفيقتك من الالتواء ...

– أهذا كلّ ما شغل معلّمتي يا أبي ؟

– وأقلقها أن يترجّح العنق في الاتّجاهات التي لا استقرار معها...

– هذا ما تهتمّ به عادةً أُستاذة الرياضة البدنيّة ...

– أوَتظنّين أن لا علاقة للرياضة الروحيّة بهذا يا حبيبتي ؟.. ومتى تنفصل المعرفة عن التربية ؟

– أيّة معرفة يا أبي ؟

– ألعلم يا عزيزتي ... ما تتعلّمين في المدرسة... هذا كلّه لا قيمة له إذا تجرّد من عنصر التوجيه والتربية الروحيّة ...

– أتودّ أن تقول إنّ معلّمتي تُصلح نفسَ رفيقتي إذ تقوّم اعوجاج عنقها ؟..

– أتسألين لتسخري يا صغيرتي ؟

– لأستفيد يا أبي ... لأهتدي إلى الطريق المستقيم ... لأُصلح من اعوجاج رقبتي ... عفواً... لأُصلح من اعوجاج نفسي ...

– أفي نفسك اعوجاج ؟. متى دبّ الاعوجاج إلى العنق البرعم يا صغيرتي ؟.

– بي ما برفيقتي من عادة التلفّت إلى الصفوف المتأخّرة .

– أيستهويك المتأخّرون يا حبيبتي ؟ ألم تراجعي للحصول على

المرتبة الأولى ؟!

ـ ما عنيت هذا ! أراك تحوّر الكلام يا أبي .

ـ أنا ؟ معاذَ الله ! ولكنّ النظر إلى أمام يروّض النفس على التطلُّع إلى المراتب المتقدّمة ...

ـ نظرتُ أمسِ طويلاً أمامي ... حدّقت مليّاً وأنا أخفِض الرأس ، فثارت ثائرة المعلّمة في وجهي ...

ـ ألنّظر إلى أسفل ترجُّحٌ آخرُ بفيضٌ يا عزيزتي ... خشيَتِ المعلّمة أن تعتاد نفسك الجمود عند المنحدرات المنخفضة ... خشيت عليك أن تفقدي نعمة التطلّع إلى الآفاق البعيدة ...

ـ أظنّك تتمادى في التفسير يا أبي ... سمعت المعلّمة أمس تقول : حذارِ من الشرود في أوهام المخيّلة ...

ـ وهل كانت تعني أنّ عليكُنّ أنْ لا تنظرن إلى أبعدَ من أنوفكنّ ؟.. ألتّطلّع الواعي إلى أمام تحفّز لكشف آفاق المستقبل يا بُنيّتي ، وطموح لتحقيق الأمنيّات المظفّرة ...

ـ لم أفهم يا أبي !

ـ عفوَك يا صغيرتي . عنيت أنّ النظر إلى أبعدَ من الواقع يساعد على النجاح ويملأ النفس بالأمل المشجّع ...

ـ وأنت يا أبي ... ألا تنظر إلى خلف أبداً ؟..

ـ من ؟ أنا ؟

ـ ألا تستهويك ذكريات الأمس ؟.. ألا يروقك أن تقف عند خاطرة قديمة أو حلم قديم ؟..

ـ هـ ... هـ ... ماذا ؟

ـ ألم تتراءَ لك بعض أطياف الماضي فترعش قلبك بالحنـــين ؟ أأنت لغدك دون حاضرك وماضيك يا أبي ؟

ـ أنت تـُشعـّبين الحديث يا صغيرتي ...

ـ بقي لي سؤال عندك ...

ـ أتسألين من جديد من غير أن تنتظري جواباً ؟

ـ أتريدني أُحبّ جدّي يا أبي ؟

ـ من ... جدّك ؟. أأنت لا تحبّينه يا عزيزتي ؟!

ـ بلى ... وأحبّه كثيراً ... ولكن ألن تغضب بسبب ذلك ؟.

ـ أغضب ؟. يا للعجب ممّا تسألين !!

ـ ألم تقل لي إنّ التلفّت إلى الماضي بغيض يا أبي ؟

ـ وهل قلتُ ما ينقض ذلك ؟

ـ أصغيتُ طويلاً أمسِ إلى جدّي وهو يُحدّثني عن طفولتك .. لقد قال إنّها أشبه بطفولتي ... فهـــل كان جدّي على خطإ وهو يلتفت إلى ماضيه في ماضيك ؟!

ـ أبي ... على خطإ ... لا أظنّ ... من حقّـــه أن يعيش في شيخوخته على أطياف ماضيه ... معنا .

ـ وأنت ، ألا تحبّ أباك فتعيش على أطياف ماضيك معه ؟..

ـ أحبّه كثيراً يا حبيبتي ... وكثيراً ما أنفض غبار ذكرياتي بين يديه ...

ـ إذاً أنت كجدّي ... أنت ...

ـ لست مثله تماماً يا غاليتي ...

ـ أنت تتناقض يا أبي .

ـ ليس لأبي اليوم غير ماضيه يا حبيبتي ...

ـ هـ ... هـ ...

ـ ألإنسان عندما يكبرُ يصبح يا بُنيّتي كمن غُرزت رجلاه في الرمل ... لا هو قادر على مواصلة السير ، ولا هو قادر على أن يلتفت إلى مواضع ُخطواته من منطَلقه ...

ـ أتعني أنّه أصبح بلا حاضر ؟..

ـ وبلا مستقبل يا عزيزتي ... جفّت عروق العافية وذوى عود النموّ ... وارتدّت المطامح عن القلب الممتلىء بالذكريات الخافق بها ...

ـ ولكنه يعيش ...

ـ يعيش بنا يا حبيبتي ... بأولاده وبحَفَدته يعيش...

ـ هذا ما قاله أمس لي ... ولم أفهم آنذاك ...

ـ وبعدُ ... أتريدين أن تعيشي كجدّك يا حبيبتي ؟..

- ماذا ؟

- لا بأس يا صغيرتي ... شرط أن تتغلّبي على الصّعاب كما تغلّب عليها جدُّك ، وأن تجمعي المطامح أعمالاً كبيرة كما جمعها ... وأن تتربّعي على قِمّة السنين عزيزةً فخورة ... كما ترينه عليها يتربّع ...

- وهل أصارح جدّي بهذا يا أبي ؟

- أبداً . دعي فرحة العرس بعيدة عن نواح المآتم يا حبيبتي .

- أتعني أنّ حديث واقعه يؤذيه ؟.. وأنّ علينا أنْ لا ننبّه خواطره على ما يُسيء إلى رجولته ؟..

- أنتِ على حقّ يا حبيبتي ... يُؤذي الفارسَ الجريحَ أن يُطلّ على ميدان المعركة من غير أن يقدر على الإسهام فيه ...

- رأيتُ أمس على الشاشة المصوّرة أسداً في قفص... عجيب!.. لقد أحسست أنّه يبكي !!

- وهل شاهد جدُّك ذلك ؟

- وبمنديلي الصغير مسحت دموع عينيه ...

- أَبَكى جـدّك يا صغيرتي ؟.. يا للغرابة !.. لم يسبق لي أن رأيت جدّك يبكي ... عرفتُه يُبكي الأحداثَ ولا يَبكي...

- ولكنّه كذلك لم يبكِ ... لم تتساقطْ دموعُه لِما حدث له ... بكى مصير الأسد وراء القضبان ... إنّه انتصارٌ أن نتماسك في مصائبنا وننفعل في مصائب الآخرين ...

– إنما يا حبيبتي ... ألا تظنّين ... أنّ جدّك رأى نفسه في المشهد المثير ؟

– ماذا ... جدّي ..؟ صحيح يا أبي ... يمكن ...

– وهل نظرتِ إلى وجهه بعد ذلك ؟..

– لقد أخفى وجهَه بيديه ...

– وهل بقي في البهو الكبير ؟

– رأيتُه ينتقل إلى غرفته .

– إذاً فاتك أن تُشاهدي وجه الأسد في وجهه ... وأن تسمعي زئيرَه في صوت جدّك يا حبيبتي !!

منشوراتنا القصصية

١	يا بياع السمسمية	٢	أبو الخيمة الزرقاء
٣	حدثني يا ابي	٤	اسرى الغابة
٥	ملح ودموع	٦	يوم عاد ابي
٧	صندوق أم محفوظ	٨	جدتي
٩	عنب تشرين	١٠	عازفة الكمان
١١	وكان مازن ينادي	١٢	كانت هناك امرأة
١٣	يوم غضبت صور	١٤	بابا مبروك
١٥	الأنامل السحرية	١٦	المغني الكبير
١٧	جلجامش	١٨	نور النهار
١٩	النسر الكريم	٢٠	رنين الخناجر
٢١	النجمتان	٢٢	ابن العروس
٢٣	جزيرة الوهم	٢٤	الغرفة السرية
٢٥	النار الخفية	٢٦	الحاج بجبج
٢٧	جوهرة الجواهر	٢٨	دهليز الغرائب
٢٩	التجاريب	٣٠	الصحائف السود
٣١	سلسلة من حكايات بيدبا	٣٢	كوب من العصير
٣٣	المنجم « عصفور »	٣٤	مغامرات أوايس
٣٥	وطلع الصباح	٣٦	اسطورة البحر
٣٧	الشريط المخملي	٣٨	سمايا
٣٩	الشكبون	٤٠	الحب والربيع
٤١	غرباء		

الثمن ١٢٠٠ ق.ل.